

مع الدكتور الوردي

في كتابه

وعاظ السلاطين

القسم الأول

تأليف

السيد مرتضى العسكري

مع الدكتور الوردي في كتابه وعّاظ السلاطين

القسم الاول

تأليف

السيد مرتضىٰ العسكري



الكتاب : .... مع الدكتور الوردي في كتابه وعّاظ السلاطين - القسم الأوّل

المؤلف : .... السيد مرتضىٰ العسكري

الطبعة : .... الرابعة / ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

المطبعة : .... باقرى - قم

الناشر : .... كلية أصول الدين

الكمية : .... ٣٠٠٠ نسخة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق الإنسان ، علّمه البيان ، و أكرمه بالعقل ليميز به الخبيث من الطيب ، و أنعم عليه بإرسال الأنبياء أدلاّء له علىٰ الطريق ليسلك سبيل الرشاد بحسن اختياره .

و الصلاة علىٰ نبينا محمد المبعوث لإتمام مكارم الأخلاق ، و علىٰ آله (هداة الخلق) السلام ، و علىٰ أصحابه البررة التحية و الإكرام .

و بعد فقد نشرت نقدي علىٰ كتاب خوارق اللاّشعور و وعّاظ السلاطين للدكتور علي حسين الوردي تباعاً بأعداد من جريدة أخبار المساء . و كان ذلك في شهر رمضان سنة ١٣٧٣ هـ ، فرغّب إليّ اخواني في حينه أن أطبعه في كراسة خاصة بدل نشرها في جريدة يصعب الإحتفاظ بأعدادها . فوعدت أن أقوم بذلك حينما تسنح لي فرصة القيام به . و أخيراً قد طلب مني بعض الاخوان أن أنجز وعدي فأعدت النظر فيها و قدمتها للطبع . و قد توخيت في نشرها بيان رأيي حول شبه الدكتور الوردي علّها ترفع بعض تلك الشبه بحول الله و قوّته ، و الله هو الموفّق للصواب .

مرتضى العسكري

تمهيد

عندما صدر كتاب (خوارق اللاّشعور) للـدكتور عـلي حسـين الوردي مدرس علم الإجتماع بكلية الآداب دعاني حب السلامة إلىٰ التريّث و الإحجام عن القيام بنقده راجياً أن يكون ذلك لغيري ، فأبقىٰ عـلىٰ كـثب ، مشـرفاً عـلى المعركة ، و آمناً من أخطارها ، و ذلك لعلمي بأنّ بـعض أنـصاف المـثقفين بـل المثقفين أيضاً يجدون في كل جديد لذة ، و لا يرغبون في سماع نقد الرأي الجديد و تمحيصه ، فيهاجمون بشدة أي شخص لا يـقبل الرأي الجـديد عـلىٰ عـلاّته ، و يحاول نقده و تمحيصه .

و بعد صدور كتاب (وعّاظ السلاطين) الذي لم يكن إلاّ أشعّة من (خوارق اللاّشعور) ! رأيت أن أنشر رأيي حول الكتابين ، و أترك الحكم علىٰ ما أقرر من نقد الكتابين للقرّاء الكرام . و هـأنذا بدأت بذلك بحول الله و قوّته .

* * * *

ليكن القارىء الكريم علىٰ علم أنّ النقاش لا يدور بيننا حول رأي المؤلف في تاريخ الإسلام ، أو في دين الإسلام و نبيه (ص) فحسب . و ليس النقاش حول الحجاب و السفور إلاّ عرضيّاً ، كما أنّ النقاش ليس حول سغب الفقير و بطر الثري -كما يحلو للمؤلف أن يرىٰ ذلك - و إنّما النقاش حول رأيين متقابلين في الفلسفة و علم الإجتماع و علم النفس ، بل قد يكون في كثير من الحقائق . و سترىٰ أنّ الدكتور الوردي و أساتذته يحاولون هدم كل قديم من أخـلاق و آداب و نـظم إجتماعية ، في حين أنّهم لا يستطيعون أن يبنوا جديداً ، كما سترىٰ أنّ المؤلف لم

يأت برأي جديد و إنّما قد جاءنا برأي من القديم بعد أن ترجمه من آراء مَن آمن به من المتأخرين . و نحن مع احترامنا لآراء الدكتور و أساتذته اللآتي نرىٰ من واجبنا أن نناقشها باسلوب علمي بحت . نؤاخذه علىٰ أسلوب نقده ، و تحامله علىٰ مخالفيه - علىٰ أنّنا قد اضطررنا أحياناً أن نسلك في مناقشة آرائه أسلوباً يقرب من أسلوبه في الدعابة - ثمّ نؤاخذه علىٰ اعتماده في بيان رأيه علىٰ إثارة العواطف ليصعب القيام بنقده علىٰ مَن يخالف رأيه ، فإنّه قد جعل من نفسه في مقام بيان رأيه مدافعاً عن الفقير ، و محامياً عن طبقات الشعب الكادحة ضد غاصبيه .

أسلوب الدكتور الوردي و رأيه و مبدؤه

لكل كاتب أسلوب يمتاز به علىٰ غيره ، و ميزان يعتبره و يقيس الأمور به ، و لأكثر الكتّاب مبدأ يدعون إليه . و إنّ دكتورنا الوردي يمتاز فيما كتب بقاعدة : خالِف تُعرَف ، و الهزء بمن يزن الفكر بمنطق أرسطو ، و عدم الإعتراف بتأثير العقل في الإنسان ، و إنّما ميزان أعمال الإنسان عنده هي العاطفة و الهوىٰ ، فالشهوة و الأنانية و الحسد هي التي تسيّر الإنسان وحدها و لا يغيّر الإنسان شيء غير ظروفه الإقتصادية ، و الحق عنده أمر إعتباريّ موهوم ، فالحق مع القاتل في محاولته القتل لأنّ غريزة الغضب تدفعه إلىٰ فعله ، و المقتول له الحق في فراره عن القتل بحكم غريزة حب الحياة ، كما أنّ الهرّ له الحق حينما يهاجم الفأر و الفأر مع الحق عندما ينهزم منه ، و ليت شعري فيما لو اعتدىٰ أحد عليه هل يبقى متمسّكاً برأيه و يرىٰ المعتدي محقاً في الإعتداء عليه ؟! لأنّ ظروفه الخاصّة دفعته إلىٰ الإعتداء أم يجأر بالشكوىٰ عليه ؟!

و أما مبدؤه الذي يدعوا إليه فيصعب علىٰ القارىء تشخيصه ، أهو الإسلام ؟ أم الديموقراطية ؟ أم الشيوعية ؟ أم ليست بهذه و لا تلك و إنّما هو مضطرب الفكر يتأرجح بين هذه المبادىء و غيرها ! اللّهم إلاّ أن يكون مبدؤه الدعوة إلىٰ الثورة فقط !

و أما رأيه في الإسلام فإنّه يرىٰ : أنّ الإسلام كان في حينه ثورة موفّقة ناجحة و لكن في إتّباع القرآن و التقيّد به في هذا اليوم جمود كجمود القائلين (أنّا وجدنا آباءنا علىٰ أمّة و أنّا علىٰ آثارهم مقتدون) .

الدكتور الوردي في كتابه خوارق اللاّشعور و وعّاظ السلاطين

يظهر للقارىء الناقد أنّ مؤلف وعّاظ السلاطين قد تأثّر كثيراً بفصل (الكهانة) من كتاب (من هنا نبدأ) لخالد محمد خالد المصري ، فالأستاذ خالد هناك يُعبّر عن رجال الدين بالكهنة و هو سابق علىٰ الوردي فيما كتبه عن الوعّاظ ، غير أنّ الأستاذ خالد – رغم أنّا نخالفه في قسم من كتابه – أكثر اتزاناً من دكتورنا الوردي ، و يتّسم كتابه بوحدة الموضوع ، و الدكتور كثير الخروج عن الموضوع ، و خاصة في كتابه خوارق اللاّشعور ، فإنّه أقرب ما يكون إلىٰ كتاب (الكلام يجرّ الكلام) لبعض العلماء المعاصرين . ثمّ أنّ الأستاذ خالد يدعوا إلىٰ الإشتراكية بحرارة و إيمان ، و يسوق الأدلّة تأييداً لِما يراه ، فلك أن تناقشه و تأخذ برأيه أو تخالفه ، و أمّا الوردي فإنّه إن أعوزه الدليل إعتمد علىٰ السخرية و النكتة في البرهنة علىٰ رأيه .

رأي أستاذ علم الإجتماع في الأخلاق

قال الدكتور الوردي في كتابه وعّاظ السلاطين :(لعلّنا لا نخطىء إذا قلنا بأنّ الحسد و الشهوة و الأنانية و ما أشبه هي صفات أصيلة في الإنسان لا مفرّ منها [1]) .

(فإذا قلنا للناس أنبذوا الحسد و الأنانيّة فمعنىٰ ذلك أنّنا نقول لهم اتركوا

---

(١) وعّاظ السلاطين ص ٢ .

طبيعتكم البشرية و كونوا ملائكة [١]).

فالواعظ حين يعظ الناس باتّباع المثل العليا و تطهير نفوسهم من أدران الحسد و الأنانية إنّما يطلب المستحيل كما أسلفنا [٢]).

(فالسوقي يرىٰ نفسه مضطراً إلىٰ الاندفاع وراء أنانيّته لكي يعيش ، هذا بينما الواعظون يطاردونه في كلّ حين معارضين في وجهه أنّ الأنانية ذنب قبيح [٣]).

إذا مرّ علىٰ هذه السطور قارىء خالي الذهن من معنىٰ الأنانيّة إندفع لا شعورياً إلىٰ كره الواعظين الذين يسدون عليه سبيل العيش و يطلبون منه أن يكون مَلَكاً ، و أن يترك صفة أصيلة في الإنسان ، و قد يسأل القارىء نفسه عن الباعث للواعظين إلىٰ هذه الحملة عليه ، فينبري الدكتور للجواب علىٰ هذا السؤال المُقدّر و يقول :

(و لا يذم هذه الصفات البشرية إلاّ أولئك الذين أنعم الله عليهم فأشبع شهواتهم و أنانيتهم و جعلهم موضع حسد لغيرهم فهم يحرّضون غيرهم علىٰ نبذ الحسد و كأنّهم يقصدون لا شعوريّاً أن يدرأوا عن أنفسهم خطر المنافسين و المنازعين [٤]).

و يرىٰ الدكتور : أنّ قول الخطباء للناس : هذّبوا أخلاقكم أيّها الناس و نظّفوا قلوبكم [٥] ، (أسخف رأي و أخبثه من ناحية الإصلاح الإجتماعي [٦]).

هذا ما قاله الدكتور و قد قال الله سبحانه و تعالىٰ :

---

(١) وعّاظ السلاطين ص ٨.

(٢) المصدر السابق ص ١٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٨.

(٤) المصدر السابق ص ٨.

(٥) المصدر السابق ص ٦ .

(٦) المصدر السابق ص ٦ .

« إنّ اللهَ يَأمُر بالعَدلِ وَ الإحسانِ وَ إيتاءِ ذي القُربىٰ و يَنهىٰ عَنِ الفَحشاءِ وَ المُنكرِ وَ البَغي يَعظُكُم لَعلَّكم تذَكَّرون [١] » .

إنّ الله في ناحية الإصلاح الإجتماعي قد وعظ كما رأيت و أمر بالوعظ في قوله : « خُذِ العَفوَ وَ أمُر بالعُرفِ وَ أعرِض عَنِ الجاهلين [٢] » .

و يمدح المؤمنين أولياء بقيامهم بالوعظ في قوله :

« وَ المُؤمنونَ و المُؤمناتِ بَعضُهم أولياءُ بَعضٍ يَأمُرونَ بالمَعروفِ و يَنهونَ عَنِ المُنكَرِ و يُؤتونَ الزّكاةَ و يُطيعونَ الله و رَسولَهُ أولٰئك سَيَرحَمهم إنّ الله عَزيزٌ حكيمٌ [٣] » .

إنّ أوامر الله و نواهيه في ناحية الإصلاح الإجتماعي كثيرة تربو علىٰ المئات و لم أقصد استقصاءها الآن ، و لم أذكر ما أوردت لأستشهد بها علىٰ صحّة القيام بالوعظ ، و إنّما أوردت ذلك لبيان عذر الوعّاظ ، فإنّهم بوعظهم ينفذون حكم الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، الذي قد يكون أهم حكم من أحكام الإسلام ، لأنّه يشكّل السلطة التنفيذية لسائر الأحكام ، و بتعطيله يتعطل إجراء جميع الأحكام الإسلامية ، و إنّي لا أختلف مع الدكتور في رأيه عن الواعظ الذي يستخدم من قبل الطغاة – إن صحّ ذلك – و إنّما إختلافي معه في أنّ الإرشاد بالكلام هل يؤثر في توجيه البشر أم لا ؟ أمّا الدكتور فإنّه يقول :

(لو بقينا مئات السنين نفعل كما فعل أجدادنا من قبل ، نصرخ بالناس و نهيب بهم أن يغيّروا من طبائعهم لما وصلنا إلىٰ نتيجة مجدية [٤]) .

و يقول : لقد جرىٰ مفكرونا اليوم علىٰ أسلوب أسلافهم القدماء لافرق في ذلك بين من تثقف منهم ثقافة حديثة أو قديمة ، كلّهم تقريباً ، يحاولون أن يغيّروا

(١) النحل : ٩ .

(٢) الأعراف : ١٩٩ .

(٣) التوبة : ٧١ .

(٤) وعّاظ السلاطين ص ٧ .

بالكلام طبيعة الإنسان [١] .

أمّا نحن فنقول أنّ الوعظ بالكلام - الدعاية المؤثرة - توجد الرغبة و الرغبة تولّد الإرادة و لا شيء بعد الإرادة إلاّ العزم ثمّ العمل ، غير أنّ الكلام إذا لم ينبعث من قلب مؤمن به معزّزاً بشواهد عملية من إيمان القائل بـه لا يـجدي نفعاً ، و كلّما قوي إيمان الواعظ برأيه إزداد تأثيره في غيره ، و كلما قلّ قل .

و إنّ رأي الدكتور في كتابه خوارق اللاّشعور يخالف ما ذكره في وعّاظ السلاطين و أكّد عليه مراراً .

فإنّه يقول هناك : (فهتلر لم يبعث في الأمة الألمانية تلك الحماسة و ذلك التعصب العجيب لآرائه بواسطة الإقناع المنطقي ، إنّما هو قد فعل ذلك بـالإيحاء و التلقين و التكرار و بواسطة الإحتفالات و الإجتماعات و الإستعراضات) .

(إنّ كلمة تكرّر قولها علىٰ نفسك مرّة بعد مرّة لقادرة أن تطبع فـي عـقلك الباطن شيئاً من الإيمان بها قليلاً أو كثيراً . و الإيمان يزلزل الجبال كما يقولون) .

(ينتقد بعض الكتّاب القرآن لأنّـه يكرّر القصص و آيات الوعظ مرّة بـعد مرّة) .

(و ما درىٰ هؤلاء المغفّلون بأنّ هذا التكرار الذي ينتقدونه هو الذي طبع في نفوس العرب ذلك الإيمان العميق بالله ، و جعلهم يحطمون إيوان كسرىٰ و عرش القيصر في سنوات معدودة [٢]) . أرأيت كيف يناقظ الدكتور نفسه بنفسه ، صدق الله العظيم حيث يقول :

« وَ لَو كانَ مِن عِندِ غَيرِ اللهِ لَوَجَدوا فيهِ اختلافاً كثيراً » .

لقد وجدنا القرآن يأمر بالوعظ خلافاً لما ارتآه الدكتور ، و أما رأيـه فـي الأخلاق - الحسد و الشهوة و الأنانية - فلو أردنا نقده و تمحيصه يجب علينا البدء بذكر موقف الإسلام من الحياة في هذه الدنيا ، ليعرف منه مذهبنا تبعاً للقرآن

---

(١) وعّاظ السلاطين ص ٧.

(٢) الوردي في خوارق اللاّشعور ص ١٥٠ .

و الإسلام فلا يلتبس الأمر علىٰ أحد عند مناقشتنا لرأي الدكتور الوردي في الصفات المذكورة ، و يظننا ممن يرىٰ الصواب في العزوف عن الدنيا ، و يتوهم أننا (إذا قلنا للناس أنبذوا الحسد و الأنانية فمعنىٰ ذلك أننا نقول لهم اتركوا طبيعتكم البشرية و كونوا ملائكة) كما توهّم الدكتور ذلك [1] .

موقف الإسلام من حياة البشر في الدنيا

لقد جاء الإسلام يدعو إلىٰ السير في الطريق الوسط ، فانه دعا العرب الوثنيين الذين لم يكونوا ليعرفوا القيم الروحية إلىٰ اعتناق المبادىء الإنسانية في الدين الإسلامي ، كما نهىٰ عن الرهبنة المسيحية و العزوف عن الدنيا ، فقد قال الله سبحانه :

« وَ ابتَغِ فيما آتاكَ اللهُ الدّارَ الآخِرةَ وَ لا تَنسَ نَصيبَكَ مِنَ الدّنيا » [2] .

و قال : « يا بَني آدمَ خُذوا زينَتَكُم عِندَ كُلّ مَسجدٍ وَ كُلُوا وَ اشرَبوا وَ لا تُسرِفوا إنّهُ لا يُحِبُّ المُسرفينَ * قُل مَن حرّمَ زينَةَ اللهِ الّتي أخرَجَ لِعِبادِهِ و الطيّباتِ مِنَ الرِّزق » [3] .

موقف النبي (ص)

في البحار [4] و الكافي [5] : أنّ امرأة عثمان بن مظعون جاءت إلىٰ

(١) راجع قبله (رأي أستاذ علم الإجتماع في الأخلاق) .

(٢) القصص : ٧٧ .

الظاهر من ذكر و لا تنس نصيبك من الدنيا بعد و ابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة و مقابلته لها أنّ المراد لا تنس نصيبك من اللّذات المباحة في الدنيا كما ذكر ذلك بعض المفسرين .

(٣) الأعراف : ٣١-٣٢ .

(٤) البحار للمجلسي (٦ : ٧٣٥) .

(٥) الكافي للكليني (٥ : ٤٩٤) .

النبي (ص) (فقالت يا رسول الله إنّ عثمان يصوم النهار ، و يقوم الليل فخرج رسول الله (ص) مغضباً يحمل نعليه حتىٰ جاء إلىٰ عثمان فوجده يصلي فانصرف [1] عثمان حين رأىٰ رسول الله ، فقال له : يا عثمان لم يرسلني الله بالرهبانية و لكنه بعثني بالحنفية السهلة السمحة أصوم و أصلي و ألمس أهلي فمن أحبّ فطرتي فليستنّ بسنّتي و مِن سنّتي النكاح .

موقف أوصياء النبي (ص)

دخل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) في البصرة علىٰ العلاء بن زياد يعوده فلما رأىٰ سعة داره قال : (ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا أما أنت إليها في الآخرة كنت أحوج ؟) .

بهذه العبارة رغّب في الإقتصاد علىٰ قدر الكفاية و إنفاق الزايد عن الحاجة ، ثم بيّن بعد ذلك أنّه يمكن أن يجمع بين السعة و القيام بالواجب بقوله :

(و بلىٰ إن شئت بلغت بها الآخرة تقري فيها الضيف و تصِل فيها الرحم و تطلع منها الحقوق مطالعها [2] فإذن أنت بلغت بها الآخرة) .

فقال له العلاء : يا أمير المؤمنين أشكو إليك أخي عاصم بن زياد .

قال : و ما له ؟

قال : لبس العباءة و تخلّىٰ عن الدنيا .

قال : عليّ به ،

فلما جاء قال : يا عدي [3] نفسه لقد استهام بك الخبيث [4] أما رحمت

---

(١) إنصرف أي إنصرف عن الصلاة و تركها .

(٢) تؤدي الحقوق .

(٣) عدي نفسه تصغير عدو .

(٤) غرّك الشيطان .

أهلك و ولدك ، أترىٰ الله أحلّ لك الطيبات و هو يكره أن تأخذها ؟ أنت أهون علىٰ الله من ذلك !

قال : يا أمير المؤمنين هذا أنت في خشونة ملبسك و جشوبة مأكلك [١] .

قال : ويحك إنّي لست كأنت ، إنّ الله فرض علىٰ أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كي لا يتبيغ بالفقير [٢] فقره [٣] .

هذا هو رأي الدين الإسلامي في الدنيا و ملذاتها ، لا يرىٰ تركها و لا الإنغماس فيها .

تأثير الحضارات الأجنبية في المسلمين

بعد انتشار الإسلام في أقطار الأرض و اختلاط المسلمين بغيرهم تأثر أمراء المسلمين بحضارة البلاد المفتوحة ، فالأمويون في الشام تأثروا بآداب الروم البيزنطيين [٤] و ساد بعض التقاليد الفارسية في بلاط العباسيين [٥] بالعراق ، و هكذا بقية الدول الإسلامية في غير العراق و الشام ، ففي كل بلد من البلاد الإسلامية أفرط الحكام في البذخ و الترف و أسرفوا في التبذير ، وكان هذا البذخ و التبذير سبباً قوياً في إثارة جماعات من الزهاد في كل عصر لمقابلة المترفين و التنديد بهم و وعظهم ، و لم يكن الوعظ في عصر الإسلام الأول مهنة

---

(١) جشوبة المأكل غلظته .

(٢) لا يتبيغ بالفقير : لا يهيج بالفقير .

(٣) نهج البلاغة .

(٤) كان كاتب معاوية سرجون الرومي (التنبيه و الاشراف للمسعودي ص ٢٦١) ، و واليه علىٰ خراج المسلمين في حمص ابن اثال النصراني (اليعقوبي ص ٤٩) .

(٥) إتخذ بعض الخلفاء العباسيين النيروز و المهرجان عيدين رسميين .

يحترفها جماعة دون أخرىٰ ، و إنّما كان أفراد المسلمين ينفذون حكم الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر في وعظهم و إرشادهم ، و بمرور الزمن و ابتعاد الناس عن عصر الإسلام الأول ، و انتشار ثقافات الأمم المجاورة بين المسلمين دخل في الدين الإسلامي عنصر جديد ، و انتشرت الدعوة إلىٰ ترك الدنيا بإسم الزهد و انتحل جماعة التصوّف و امتهنوا الوعظ ، فقام قسم من الوعّاظ يعظون الناس و يطلبون منهم أن يخالفوا الغرائز البشرية ، فلم ينتفع بوعظهم أحد .

رجوع إلىٰ موقف أوصياء النبي (ص)

قال محمد بن المنكدر : أردت أن أعظ محمد بن علي بن الحسين فوعظني ، خرجت إلىٰ بعض نواحي المدينة في ساعة حارة ، فلقيني أبو جعفر محمد بن علي و كان رجلاً بادناً ثقيلاً ، و هو متّكيء علىٰ موليين ، فقلت في نفسي سبحان الله شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة علىٰ هذا الحال في طلب الدنيا ، أما لأعظنّه ، فدنوت منه فسلمت عليه ، فردّ عليّ بنهر و هو يتصابّ عرقاً ، فقلت : أصلحك الله شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة علىٰ هذا الحال في طلب الدنيا أرأيت لو جاء أجلك و أنت علىٰ هذا الحال ما كنت تصنع ؟

فقال : لو جاءني الموت و أنا علىٰ هذا الحال جاءني و أنا في طاعة من طاعات الله عزّ و جل ، أكفّ بها نفسي و عيالي عنك و عن الناس ، و إنّما كنت أخاف أن لو جاءني الموت و أنا علىٰ معصية من معاصي الله . فقلت : صدقت أردت أن أعظك فوعظتني [(١)] .

وقعت هذه المحاورة في أوائل القرن الثاني الهجري بين محمد المنكدر و الإمام الباقر (ع) ، و كان هذا الواعظ العابد يرىٰ طلب الدنيا معصية لا ينبغي أن يشتغل بها الإنسان ، بل ينبغي أن يترك الدنيا و العمل لها و ينصرف إلىٰ العبادة ،

---

(١) البحار (١ : ١٠٠) .

و كان هو قد قسّم ليله بين نفسه و أمه و شقيقته أثلاثاً ، كلٌّ منهم يقوم بإحياء ثلثاً من الليل بالعبادة ، فلما ماتت شقيقته قسّم الليل بينه و بين أمه نصفين ، يقوم هو بإحياء نصف من الليل و تقوم أمه بإحياء النصف الآخر ، و كان هذا الواعظ صادقاً في شعوره و لم يكن مرائياً ، و لمّا أفهمه الإمام أنّ طلب الدنيا لإعاشة المرء نفسه و عياله طاعة من طاعات الله ، صدّق الإمام و أتّعظ .

إلىٰ هذا العصر كان بعض أفراد المسلمين يرغبون في الزهد و العبادة و يعظون غيرهم بحرارة و إيمان ، و قبل أن يمضي النصف الأول من القرن الثاني الهجري شكّل رهبان المسلمين جماعات لبسوا الصوف و قاموا يدعون الناس إلىٰ ترك الدنيا و ترك العمل للدنيا و يطعنون في سلوك سائر المسلمين ، و كان لهؤلاء مع الإمام جعفر الصادق (ع) محاورات و مناظرات .

(مرّ سفيان الثوري في المسجد الحرام فرأىٰ جعفر الصادق (ع) و عليه ثياب حسان ، فقال و الله لآتينّه و لأوبّخنّه ، فدنا منه فقال : يا ابن رسول الله ما لبس رسول الله مثل هذا اللباس و لا علي و لا أحد من آبائك ، فقال له أبو عبد الله كان رسول الله في زمن مقتر [1] و كان يأخذ لقتره و إقتاره ، و أنّ الدنيا بعد ذلك أرخت عزاليها [2] فأحقُّ أهلها بها أبرارها ثمّ تلا : « قُل مَن حَرّمَ زينَةَ اللهِ الّتي أخرَجَها لِعبادِهِ » [3]) .

و يحدث الإمام نفسه و يقول : (بينا أنا في الطواف فإذا رجل يجذب ثوبي و إذا عباد بن كثير البصري ، فقال : يا جعفر تلبس مثل هذه الثياب و أنت في هذا الموضع مع المكان الذي أنت فيه من علي ، فقلت : ثوب فرقبي إشتريته بدينار ، و كان علي في زمان يستقيم له ما لبس فيه ، و لو لبست مثل هذا اللباس في زماننا

---

(١) مقتر : ضيق في النفقة .

(٢) أرخت السماء عزاليها : وقع المطر بشدة كناية عن الرخاء .

(٣) البحار (١١ : ٢١٣) .

لقال الناس هذا مرائي مثل عباد [1]) .
إنتشر هذا المبدأ في ذلك العصر و أخذ هؤلاء يهاجمون غيرهم بشدة ، فيكثرون علىٰ الإمام أن يلبس ثوباً يساوي ديناراً .
و إذا كان هؤلاء قد تركوا العمل للدنيا فمن أين كانوا يعيشون ؟! و هل كانوا كلاًّ علىٰ غيرهم ؟!

الوعّاظ الماديّون

لقد ذكرنا في حديثنا عن الوعّاظ في العصور الماضية أنّ جماعة منهم كانوا يطالبون الناس بالعزوف عن الدنيا و تركها ، و تناسوا الغرائز البشرية و مقتضياتها ، و اهتموا بتقوية القوىٰ الروحية في الإنسان فحسب .
و إذا أمعنّا النظر في عصرنا الحاضر وجدنا أنّ جماعة من الوعّاظ الماديّين - الشيوعيين - لا يؤمنون بوجود شيء ما عدا المادة و ما ينشأ منها ، و يكفرون بالقوىٰ الروحية و آثارها ، و يدرسون جميع الظواهر في الكون علىٰ ضوء نظريتهم المادية فحسب .
فإذا درسوا التاريخ نسبوا كل تطور في المجتمع البشري إلىٰ عوامل إقتصادية بحتة ، و إذا حلّلوا غرائز الإنسان لم ينتبهوا إلىٰ غير غرائز الشهوة و الحسد و الأنانية فيه ، فهؤلاء في كيفية دراستهم يشابهون باحثاً جرثومياً (بكتريو لوجيست) فحص في مختبره عن جرثومة خاصة في دم الإنسان ، فتتبّعها و سجّل أدوارها بكل دقة و إمعان ، ثم حاول أن يوفق بين جميع العوارض الموجودة في بدن المريض و تلك الجرثومة ، و لم ينتبه إلىٰ وجود سائر الجراثيم في الدم و الآثار المنبعثة عنها ، فهو يصيب في كشفه حيناً و يخطىء أحياناً .
هكذا يعالج قسم من الكتّاب أخلاق البشر ، و كذلك يعلّلون تطور المجتمع

---

(١) البحار (١١ : ٢١٢ ، ٢١٣) .

البشري ، فهم ينظرون إلىٰ العالم من زاوية واحدة فقط .
و أما نحن فلا ننكر تأثير العوامل الإقتصادية في حياة البشر ، غير أنّنا لا ننسىٰ المؤثرات الأخرىٰ فيه أيضاً ، كما أنّنا في دراستنا لغرائز البشر ، نؤمن بوجود الشهوة و الحسد و الأنانية و مقتضياتها فيه ، و لكنّا نراها و نرىٰ إلىٰ جنبها غرائز أخرىٰ تقابلها .

الخيرية أو الرحمة و الرأفة و حب الخير في البشر

مَن انتبه إلىٰ نفسه أو إلىٰ ما يقوم به غيره ، لا بد و أنّه يرىٰ أو رأىٰ من نفسه أنّه يرأف علىٰ طفل صغير يسقط ، أو يرحم شيخاً كبيراً يهوي ، و أنّه قد خاطر يوماً ما ، أو يرىٰ من نفسه أنّه يخاطر لإنقاذ غريق ، أو إطفاء حريق ، أو إغاثة ملهوف ، أو إسعاف منكوب ، أو رأىٰ و سمع مَن قام بتلك . فما هو الباعث للإنسان إلىٰ القيام بهذه الأفعال ؟
و ماذا ترىٰ دفع أصحاب الحسين (ع) إلىٰ التفاني في سبيل الحسين ؟!
الأنانية أم الشهوة ؟ أم عقد نفسية قد تكونت علىٰ أثر كبت الغرائز الجنسية ؟ أم أنّ بواعث إقتصادية دفعتهم إلىٰ ارتشاف كأس الشهادة ؟ أم ماذا ؟ إذا فكر أحدنا في كل ذلك عرف أنّ الإنسان في حياته يعتمد علىٰ دعامتين ، و يسير علىٰ قدمين : الغرائز الحيوانية السابقة الذكر ، الشهوة و الحسد و الأنانية ، و ما يقابلها من الغرائز الإنسانية ، أي الرأفة و الرحمة ، و حب الخير للغير ، و الإيثار علىٰ النفس حتىٰ يرتفع إلىٰ درجة التضحية بالنفس و النفيس في سبيل الصالح العام ، في سبيل العدل ، في سبيل المبدأ الذي يدين به .
و يختلف البشر أشد الإختلاف في الإتّصاف بكل واحدة من هذه الصفات بعامل الوراثة و البيئة و الظروف الإقتصادية و التربوية ، غير أنّ للبشر قدرة خارقة علىٰ تكييف نفسه ، بتقوية بعض هذه الخصال و تضعيف البعض الآخر

، و بين هاتين المجموعتين من القوىٰ المتقابلة : الأنانية و الغيريّة [1] صراع دائم في النفس ، فترىٰ الغيرية في البعض تغلب أحياناً و تسوق صاحبها إلىٰ الخيرات و الفضائل ، و آونة تتغلّب الأنانية ، فتدفع صاحبها إلىٰ الشرور و الرذائل ، و قد يبقىٰ الإنسان حائراً متردّداً في تقديم إحداهما علىٰ الأخرىٰ .

و لو أمعن الدكتور الوردي و غيره من تلاميذ المدرسة المادية الديالكتيكية في دراسة الغرائز الإنسانية جميعها ، فدرسوا الغيرية في البشر إلىٰ جنب دراستهم للغرائز الأنانية المقابلة لها ، لما وقعوا في الغلط ، و لما قال دكتورنا الوردي : أنّ الصراع النفسي منشؤه الوعظ [2] ، و أنّ ازدواج الشخصية منشؤه نشر التعليمات الدينية [3] . و لعرف الدكتور أنّ الصراع النفسي أصيل في الإنسان ، و أنّ منشأه اتصاف جميع البشر - بدرجات متفاوتة - بالغريزتين الفطريتين : الأنانية و الغيرية ، سواء أدَخَلَ الناس المساجد و الكنائس و سمعوا الوعظ و الإرشاد أو لم يدخلوا و لم يسمعوا .

الوعظ و الصراع النفسي و الوعظ و ازدواج الشخصية

يحاول الدكتور ، في فصل الوعظ و الصراع النفسي من كتابه وعّاظ السلاطين ، أن يربط بين وعظ الواعظين و الصراع النفسي ، كما يحاول في الفصل الثاني تعليل ازدواج الشخصية في الإنسان بوعظ الواعظين و نشرهم التعاليم الدينية ، فيقول في ص ٢٠ منه :

---

(١) أنّ الأنانية المتطرفة هي منشأ الرذائل الخلقية ، من بخل و جبن و حسد إلىٰ غيرها من الصفات الذميمة . و الغيرية منشأ الفضائل الخُلُقية ، كالكرم و الشجاعة و حب الخير للغير .

(٢) راجع الوعظ و الصراع النفسي من وعّاظ السلاطين ص (٢٠-٢٦) و لعلك تجد المؤلف يناقض نفسه بنفسه في هذا الفصل .

(٣) راجع وعّاظ السلاطين ص (٥٤ - ٥٦) .

(الإنسان حين يسمع الواعظ يعظه بترك هذه الدنيا الخلابة يمسي حـائراً فضميره يأمره بإطاعة الواعظ من ناحية ، و نفسه تجذبه من الناحية الثانية نـحو الدنيا ، فهو إذن واقع بين حجري الرحىٰ لا يستطيع أن يترك الدنيا ، و لا يستطيع أن يترك الجنة التي وعد بها المتقون .

يحكىٰ أنّ عمر بن سعد بن أبي وقاص وقع ذات يوم في مثل هذا المأزق الحرج .

و يُروىٰ أنّه كان يتقلب علىٰ فراشه و ينشد البيت التالي :

أأتـــرك مـــلك الري و الري مـــنيتي

أم أرجـــع مأثـــوماً بـقتل حسـين)

لو كان الدكتور قد ألتزم في كتابه هذا بـاتباع قـواعـد المـنطق الحـديث و منهج البحث في علم الإجتماع ، و لم يتسرّع بالحكم قبل الإستقراء ، إستناداً إلىٰ ملاحظته الفجة ، لَتنبّه إلىٰ ملازمة الصراع النفسي للإنسان أينما كان ، إذ أنّ لكل إنسان شهوات و رغبات يسعىٰ للوصول إليها ، بينما كل مجتمع يعيش فيه الإنسان لا بد له من نظام يقيد الفرد ، و يمنعه من متابعة أهوائه ، سواء أكان النظام دينياً أم مدنياً . فإذا كان الإنسان ضعيف الإيمان بنظام مجتمعه حاول التخلص من ذلك النظام أبداً و دائماً .

بينما يخشىٰ من مجتمعه أن يعتبره مجرماً ، و عند ذاك يقع هذا الإنسان بين حجري الرحىٰ ، قوانين مجتمعه و شهواته و أهوائه ، سواء أكان هذا الإنسان في العراق أم في أقاصي روسيا أو أمريكا .

إذن فالصراع النفسي نتيجة حتمية لضعف الإيمان بالنظام – هذا إذا لم يكن الصراع النفسي أصيلاً في طبيعة الإنسان مع اختلاف في الدرجات – كما سبق أن ذكرنا ذلك آنفاً[١] .

و أنّ حيرة عمر بن سعد و تردّده في قتال الحسين ، أيضاً كان ناشئاً مـن

---

(١) راجع ما قبله ص ١٥ .

ضعف إيمانه بدين الحسين و جدّه . و من روىٰ عن عمر بن سعد إنشاده البيت الذي استشهد به الدكتور ، يروي له بعد ذلك هذه الأبيات :

و في قتله النار التي ليس دونها
حجاب ولي في الري قرة عين
يقولون إنّ الله خالق جنة
و نار و تعذيب و غلّ يدين
إلىٰ آخر الأبيات ...

و ليس الأمر في ذلك منحصراً بمعتنقي الأديان و المعتقدين بالجنة و النار [1] فحسب . و إنّما هو عامّ بالنسبة إلىٰ كل إنسان مع مبدئه و نظام مجتمعه ، أيّاً ما كان مبدؤه و نظام مجتمعه ، و الشواهد علىٰ ذلك كثيرة و مشهودة لكلّ واحد .

و ذكر في ص ٢٣ :(إنّ المجتمعات الحديثة بدأت تقضي علىٰ بعض أسباب هذا الصراع النفسي ، حين أطلقت الحرية للمرأة ، و رفعت من مستواها الثقافي و الإقتصادي ، و سمحت لها بالإختلاط مع الرجل ، و بمغازلته و مراقصته و ملاعبته) .

و يقول في الهامش من نفس الصفحة : (أنّ المجتمعات الحديثة و إن كانت قد ابتليت بأدواء أخرىٰ و لكنه مهما كان فهو خير من داء الصراع النفسي) .

اذا كان كل داء خيراً من داء الصراع النفسي ، إذن فمن الخير للإنسان – علىٰ رأي الدكتور طبعاً – أن يتحرّر من كل قيد إجتماعي و نظام إنساني مهما كان نوعه ، ليسلم من داء الصراع النفسي نهائياً .

إذن إلىٰ الأمام .. إلىٰ الأمام .. إلىٰ الإباحية المطلقة .. إلىٰ الفوضوية .. إلىٰ حياة الغابات و الكهوف !! .

---

(١) راجع وعّاظ السلاطين ص ٢٠ ، لترىٰ كيف يحاول الدكتور أن يجعل ذلك ناشئاً عن العقيدة الدينية ، كالعقيدة بالجنة و النار مثلاً .

و في صدد الحجاب و تعداد مضارّه ذكر في ص ١٠-١١ : (إنّ الجامعات الغربية تعنىٰ بالشهوة كلّ العناية ، فلا تستحي و لا تعظ ، فهي تخصّص لطالباتها و طلابها أماكن للإختلاط و الرقص ، و تساعدهم علىٰ التعرّف بعضهم ببعض و تهيء لهم أجواق الموسيقىٰ ، و تشملهم جميعاً بجو من المرح و اللذة البريئة) . و يذكر أنّ أستاذه قال له : (إنّنا إذا منعنا طلابنا و طالباتنا من الإختلاط المكشوف ، لجأوا إلىٰ الإختلاط المستور ، بعيداً في جو ملؤه الريبة و الإغراء ، إنّنا إذ نعترف بما في الطبيعة البشرية من قوىٰ ، و نهيّء لها ما ينفّس عنها في جو من البرائة و الطمأنينة ، نكون بذلك قد وقينا الإنسان من مزالق الشطط و مغريات الخفاء) .

إنّ طبيعة النفوس البشرية تتوق إلىٰ الإتصال الجنسي و تحتاجه ، كما تتوق إلىٰ الطعام و الشراب و تحتاجهما ، و كما أنّ النظر إلىٰ أصناف الطعام و شمّ رائحتها و لمسها لا تشبع الجائع ، كذلك اختلاط الفتيات بالفتيان ، و الرقص و الموسيقىٰ و المغازلة لا تشبع النّهم الجنسي في الشباب ، بل إنّ كلّ هذه تزيده تعطّشاً إلىٰ الإتّصال الجنسي ، فإذا سمحنا له بكل شيء جهاراً ما عدا الإتصال الجنسي ، فإنه عند ذاك يطفيء نار شهوته الملتهبة خفية و سراً .

و في آلاف القصص المتواترة عن الحوادث الجنسية المثيرة في بلاد الغرب آلاف الأدلة و البراهين علىٰ ذلك ، و لا ينتهي المترفون المنجرفون وراء الشهوة الجنسية إلىٰ حدٍ ، لينظر في ذلك الحد أهو صحيح أم باطل ؟ حتىٰ يخلوا بنظام الأسر ، و يضيّعوا الأنساب ، إلىٰ ما لاأستطيع له عداً و حصراً من المضار .

ذكرت مجلة (خواندنيها) [1] الإيرانية تحت عنوان (لعبة تبديل الأزواج) نقلاً عن مجلة (پيجنت) الامريكية : أنّها نقلت إهتمام الجرائد الامريكية و مجلاتها بذكر (لعبة المفاتيح) ، أو (لعبة تبديل الأزواج) المنتشرة في مملكة (كوپا) من أقصاها إلىٰ أقصاها . ثمّ ذكرت كيف يجتمع ستة من الأزواج مع

---

(١) نقلناه ملخصاً عن ص ٢٩ من العدد ٥٦ من السنة ١٥ .

زوجاتهم - أو أكثر من ذلك أو أقل - في دار أحدهم ، و بعد شربهم المسكرات ، تلقي كل إمرأة مفتاح دارها وسط الغرفة ، فمن التقطه من الرجال الحاضرين ذهبت معه إلىٰ دارها ، و بات تلك الليلة معها ، حتىٰ إذا أصبح المتبادلون رجع كل زوج إلىٰ داره ، و قد يطول هذا التبديل أكثر من ليلة . و قد لوحظ أنّ هذه العادة في العائلات متوسطة الغناء أكثر إنتشاراً .

في مثل هذا المكان يقلّ الصراع النفسي ، حيث ينساق البشر وراء هواه بلا قيد و لا شرط ، فقد أراح هؤلاء الشيطان و كفوه شرّ الإغواء .

و إنّ مثل هذا الفعل الشائن - في عُرفنا - قد يقع في مملكة نساؤها سافرات ، فهل يعترف أستاذ علم الإجتماع بأنّ ذلك من مساوىء السفور ؟ لست أدري !! و لعله لا يرىٰ فيه سوءاً و لا قبحاً ، لأنّ عرفهم الإجتماعي و إطارهم الفكري لم يجد فيه قبحاً و لا سوءاً [١] ، و قال في ص ٢٠ منه : (دأب وعّاظنا علىٰ تحبيذ الحجاب و حجر المرأة ، فنشأ من ذلك عادة الإنحراف الجنسي في الرجل و المرأة معاً .

ظنّ وعّاظنا أنّهم يستطيعون أن يمنعوا الإنحراف الجنسي بواسطة الكلام و النصيحة وحدها ، غير دارين بأنّ الإنحراف طبيعة إجتماعية لا بدّ من ظهورها في كل بلد يحتجب فيه النساء عن الرجال) .

و قال : (قد دلّت القرائن علىٰ أنّ المجتمع الذي يشتد فيه حجاب المرأة يكثر فيه ، في نفس الوقت ، الإنحراف الجنسي ، من لواط و سحاق و ما أشبه) .

و قال عنهما : (أنّهما أمران متلازمان ، فلا يوجد أحدهما إلاّ حيث يوجد الآخر) .

نكرّر القول بأنّ أستاذ علم الإجتماع لم يلتزم في بحثه عن الإسلام و تاريخه منهج البحث في علم الإجتماع و لم يسر في ضوء المنطق الحديث ، خلافاً لِما ادّعاه و جعله عنواناً لكتابه ، حيث قال : (رأي صريح في تاريخ الفكر

---

(١) راجع خوارق اللاّشعور ص ٤٧ ، الفصل الأول (الإطار الفكري) .

الإسلامي في ضوء المنطق الحديث [1]).

إنّ الأستاذ لمّا رأىٰ ظاهرة الحجاب و الإنحراف الجنسى في مجتمع يعيش فيه، و رأىٰ جزءاً صغيراً من المجتمع الامريكي - جامعة تكساس و بعض البلاد الامريكية التي شاهدها - خالية من الظاهرتين معاً كما يزعم!! و سمع عن فرنسا مثل ذلك، جعل ذلك سنداً لأحكامه القطعية الثلاث الآتية:

أولاً: نشأ الإنحراف الجنسي في مجتمعنا علىٰ أثر تحبيذ الحجاب من قِبَل الوعّاظ.

ثانياً: ظنّ الوعّاظ أنّهم يستطيعون أن يمنعوا الإنحراف الجنسي بواسطة الكلام و النصيحة وحدها.

ثالثاً: إنّ الإنحراف الجنسي طبيعة إجتماعية، لا بدّ من ظهورها في كل بلد يحتجب فيه النساء عن الرجال، و يكثر في نفس الوقت الذي يشتد فيه الحجاب الإنحراف الجنسي، و إنّهما أمران متلازمان لا يوجد أحدهما إلاّ حيث يوجد الآخر.

نشأة الإنحراف الجنسي

إذا بحثنا عن نشأة الإنحراف الجنسي في مجتمعنا فقط، مع غض النظر عن سائر المجتمعات الأخرىٰ، وجدنا أنّ الإنحراف الجنسي متأخر في مجتمعنا عن إنتشار الحجاب و إشتداده أكثر من قرن و نصف قرن، إذ أنّ الحجاب قد نشأ و انتشر في السنة الخامسة بعد الهجرة [2]، حيث نزلت آيات الحجاب و دعا إليه الله و رسوله و نفذه الرسول و السابقون من المؤمنين في نسائهم.

فقد قال الله سبحانه مخاطباً نبيّه: « قُل للمُؤمنينَ يَغُضّوا مِن أبصارِهم

---

(١) راجع ص ١ من غلاف كتابه وعّاظ السلاطين.

(٢) كما صرّح بذلك جمع من المفسرين.

وَ يَحفَظوا فُروجَهُم ذلك أزكىٰ لَهُم إنّ اللهَ خَبيرٌ بِما يَصنعون * وَ قُل للـمُؤمناتِ يَغضُضنَ مِن أبصارِهِنَّ وَ يَحفَظنَ فُروجَهُنَّ وَ لا يُبدين زينَتَهُنَّ إلاّ ما ظَهَرَ منها و لْيَضرِبْنَ بِخُمرِهنّ عَلىٰ جُيوبِهنّ و لا يُبدينَ زينتَهُنّ إلاّ لِبُعولَتِهنّ أو إخوانهنّ أو بَني إخوانِهنّ أو بَني أخَواتِهنّ أو نسائِهنّ أو ما مَلَكَت أيمانُهنّ أو التّابعينَ غَيرِ أولي الإربةِ مِنَ الرّجالِ أو الطِّفلِ الّذينَ لَم يَظهروا علىٰ عَوراتِ النّساءِ وَ لا يَضرِبنَ بأرجُلِهنّ لِيعلَمَ ما يُخفينَ مِن زينَتَهُنّ وَ توبوا إلىٰ اللهِ جَميعاً أيُّها المؤمنون لعلَّكُم تُفلِحونَ » [١] .

(عن علي بن أبي طالب ، قال : مرّ رجل علىٰ عهد رسول الله (ص) في طريق من طرقات المدينة ، فنظر إلىٰ إمرأة و نظرت إليه فوسوس لهما الشيطان ، أنّه لم ينظر احدهما إلىٰ الآخر إلاّ إعجاباً به ، فبينما الرجل يمشي إلىٰ جنب حائط ينظر إليها إذ استقبله الحائط فشقّ أنفه فقال : و الله لا أغسل الدم حتىٰ آتي رسول الله (ص) فأعلمه أمري ، فأتاه فقصّ عليه قصّته ، فقال النبي : هذا عقوبة ذنبك و أنزل الله : « قُل للمؤمنينَ يَغُضّوا..» [٢]) . و بهذا أمر الجنسين في هاتين الآيتين بغض بصرهما عن النظر إلىٰ الجنس الآخر ، كي لا يرىٰ ما لا تخفيه الثياب من محاسن الجسد ، كاعتدال القوام ، و فراهة الجسم ، و ليتجنب بذلك رؤية زينة الثياب الظاهرة لعين الرائي ، ثم أمر بحفظ الفرج عن الزنا [٣] بعد ذلك ، و أن لا تبدي النساء زينتها ، كالسوار و القلادة ، إلاّ ما ظهر من الزينة كالثياب و الجلباب [٤] ، و أن يدنين بخمرهنّ [٥] علىٰ جيوب قميصهن ، خلافاً لما كانت

---

(١) سورة النور : ٣١ – ٣٢ .

(٢) رواه السيوطي في الدر المنثور (٥ : ٤٠) عن إبن مردويه .

(٣) ذكر المفسرون أنّ حفظ الفرج في القرآن كناية عن التحفّظ عن الزنا .

(٤) روىٰ ذلك السيوطي في تفسيره عن ابن مسعود بعشرة أسانيد ، كما رواه الطبرسي و غيره أيضاً .

(٥) الخمار : مقنعة المرأة ، و هي غطاء تستر بها المرأة رأسها و تنسدل ذيولها علىٰ جنبيها .

عليه النساء في العصر الجاهلي - قبل الإسلام - إذ كنّ يلقين مقانعهن علىٰ ظهورهن فتبدو صدورهن . و نهاهنّ عن إبداء زينتهنّ لغير ذوي محارمهنّ من الرجال ، و لغير نسائهن المسلمات ، و لغير جواريهن من النساء ، و لغير الرجال التابعين ممّن لا حاجة لهم في النساء ، لكبر سنّهم ، أو لنقص في طبيعتهم ، أو المغفّلين من الرجال . و لغير الأطفال الذين لم يميّزوا عورة النساء من الرجال ، كما نهاهن عن أن يضربن بأرجلهن ليسمع صوت زينتهن من الخلاخيل ، و غيرها مما يخفين من الزينة .

و بعد أن ذكر الله في الآيات المتقدمة مَن أُبيح له الدخول علىٰ النساء من التابعين و الأطفال ، بيّن بعد ذلك أنّ علىٰ هؤلاء أيضاً أن يستأذنوا في الدخول عليكم في ثلاثة أوقات ، حيث قال :

« يا أيّها الّذينَ آمَنوا لِيستَأذِنكُمُ الّذينَ مَلَكَت أيمانُكُم وَ الّذينَ لَم يَبلُغوا الحُلُمَ مِنكُم ثَلاثَ مَرّاتٍ مِّن قَبلِ صلاةِ الفَجرِ وَ حينَ تَضعون ثِيابَكُم مِنَ الظَّهيرَةِ وَ مِن بَعدِ صلاةِ العِشاءِ ثَلاثُ عَوراتٍ لّكُم لَيسَ عَليكُم وَ لا عَلَيهِنّ جُناحٌ بَعدَهُنّ طَوّافونَ عَليكُم بَعضُكُم عَلىٰ بَعضٍ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآياتِ وَ اللهُ عَليمٌ حَكيمٌ * وَ إذا بَلَغَ الأطفالُ مِنكُمُ الحُلُمَ فَلْيَستَأذِنوا كَما استَأذَنَ الّذينَ مِن قَبلِهِم كَذلك يُبَيِّنُ اللهُ لَكُم آياتِهِ وَ اللهُ عَليمٌ حَكيمٌ * وَ القواعِدُ مِنَ النّساءِ اللاّتي لا يَرجونَ نِكاحاً فَليسَ عَلَيهِنّ جُناحٌ أن يَضَعْنَ ثِيابَهُنّ غَيرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزينَةٍ وَ أن يَستَعفِفنَ خَيرٌ لَّهُنّ [1] » .

في السنة الخامسة من الهجرة نزلت آيات الحجاب و التي منها الآية الكريمة :

« وَ إذا سَألتُموهُنّ مَتاعاً فاسألوهُنّ مِن وَراءِ حِجابٍ ذُلِكُم أطهَرُ لِقُلوبِكُم وَ قُلوبِهِنّ [2] » .

---

(١) النور ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ .

(٢) الأحزاب ٥٩ .

روت أم سلمة – و ذلك بعد نزول آيات الحجاب – و قالت : (كنت عند النبي و ميمونة . بينا نحن عنده أقبل ابن أبي أم مكتوم فدخل عليه فقال رسول الله (ص) : إحتجبا عنه . فقالت : يا رسول الله أليس هو أعمىٰ لا يبصرنا ؟ فقال : أعمياوان أنتما ؟ ألستما تبصرانه ؟ [١]) .

و خاطب الله نبيه أيضاً و قال : « يا أيُّها النّبيُّ قُل لأزواجِكَ وَ بَناتِكَ وَ نساءِ المُؤمِنينَ يُدنينَ عَلَيهِنّ من جَلابيبِهِنّ [٢] ذلك أدنىٰ أن يُعرَفنَ فَلا يُؤذَينَ وَ كانَ اللهُ غَفوراً رَّحيماً [٣] » .

عن أم سلمة و عن عائشة قالتا : (لمّا نزلت هذه الآية خرج نساء الأنصار كأنّ علىٰ رؤسهن الغربان من أكسية سود يلبسنها [٤]) .

و روىٰ محمد بن سيرين قال : (سألت عبيدة السليماني (رض) عن قول الله يدنين عليهن من جلابيبهن ، فتقنّع بملحفة فغطىٰ رأسه و وجهه و أخرج إحدىٰ عينيه [٥]) .

لقد تلونا القرآن فوجدناه يفرض الحجاب علىٰ النساء و يأمر الجنسين بغضّ البصر ، و يأمر النساء بإخفاء الزينة و يتشدّد في الحجاب حتىٰ يقول : « وَ لا يَخضَعنَ في القَولِ فَيَطمَعَ الَّذي في قَلبِهِ مَرَضٌ وَ قُلنَ قَولاً مَعروفاً وَ قَرنَ في بُيوتِكُنَّ وَ لا تَبَرَّجنَ تَبَرُّجَ الجاهِلِيَّةِ الأولىٰ [٦] » .

و يتشدّد النبي حتىٰ يقول : (أيما امرأة استعطرت فخرجت فمرّت علىٰ قوم

---

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور (٥ : ٤٢) عن أربعة طرق ، و الزمخشري في تفسيره (٢ : ٩٠) و قال : كان ذلك بعد نزول آية الحجاب .

(٢) الجلباب : الملاءة التي تلبسها المرأة فوق ثيابها (كالعباءة) .

(٣) الأحزاب : ٥٩ .

(٤) أخرجه السيوطي في تفسيره (٥ : ٢٢١ ، ٢٢٢) عن طرق عديدة .

(٥) في تفسير السيوطي (٥ : ٢٢١ ، ٢٢٢) .

(٦) الأحزاب : ٣٢ و ٣٣ .

فيجدوا ريحها فهي زانية [١]) .
و قد أسقط الإسلام عنهنّ الجهاد ، و الجمعة ، و الجماعة ، و تشييع الجنائز، و الهرولة بين الصفا و المروة ، و الجهر بالتلبية [٢] ، و منعهن عن الإختلاط بالرجال ، كل هذا التشديد في الحجاب من الله و رسوله ، و منذ عصر الرسالة ، و لكنّ أستاذ علم الإجتماع ينسبها إلىٰ الوعّاظ !! فهل إنّ ذلك لجهله بمنشأ الحجاب أم أنّه أراد أن يسب رسول الله حين قال : ما مرّ عليك ، و حين يقول :
(نشر الوعّاظ مبدأ الحجاب في المجتمع الإسلامي ، و أيّدوه بالأدلّة العقلية و النقلية ، و لعلّهم أرادوا بذلك - لا شعورياً - أن ينذروا الفقراء بالويل و الثبور و يمنعوهم من التطلّع إلىٰ ما في داخل القصور الشامخة من بيض حسان .
فالواعظ حين يقول : (لا تنظر إلىٰ المرأة) ربما أراد أن يقول لا تنظر إلىٰ جواري غيرك [٣]) .
كان صدور تشريع الحجاب في السنة الخامسة بعد الهجرة كما مرّ عليك ذلك . فهل الدكتور يقصد بالواعظين - حين يقذفهم - رسول الله و آله و صحابته الذين نفّذوا أمر الحجاب في بدئه أم ماذا ؟ لست أدري !! و كان قصدي من ذكر الآيات الواردة في الحجاب و الأحاديث المبيّنة لها بيان تاريخ الحجاب و منشأه ، و لم أكن بصدد بيان وجوب الحجاب في الدين الإسلامي ، و لا في صدد بيان محسناته ، لأنّي واثق كل الوثوق بأنّ سبب إنتشار التبرج و السفور بين نساء المسلمين ليس جهلهم بحرمة التبرج و التعرّي تجاه الأجنبي ، و إنّما الباعث لهم علىٰ ذلك هي الشهوة و الهوىٰ فحسب ، و إن احتجّوا بالتمدّن الغربي و ما عداها .
و هل من ينكر حرمة شرب الخمر و لعب القمار و أخذ الربا إلىٰ عشرات من غيرها من المحرمات في الدين الإسلامي . أليس كل ذلك محللة في القوانين

---

(١) الدر المنثور للسيوطي (٥ : ٤١) .

(٢) سفينة البحار (٢ : ٥٨٧) يرويها المحدّث القمي عن رسول الله (ص) .

(٣) وعّاظ السلاطين ص ١٢ .

المرعية في البلاد الإسلامية ؟!!

إشتد الحجاب في السنة الخامسة بعد الهجرة ، و يذكر التاريخ أنّ الإنحراف في الإتصال الجنسي انتشر بين المسلمين في النصف الثاني من القرن الثاني بعد الهجرة ، و لم ينتشر في نفس الوقت ، كما ذكره الدكتور .

و قد شاع الإنحراف الجنسي بين المسلمين بعد أن غمرت بيوت الأمـراء و الشعراء و الأثرياء موجة من الغلمان الأمارد ، مع ظهور الغلو في حجر نسـاء الأشراف عن الزواج ، من أمثال العباسة أخت الرشيد [1] و أقرانـها ، و بـعد أن ضعف الوازع الديني في نفوس المسلمين ، و انـتشرت دور الخـمر ، و شـاعت الزندقة ، و راود الشعراء و أهل الترف الأمارد من الغلمان في الديارات المنتشرة في طول البلاد الإسلامية ، بقصد الإستمتاع و اللذة ، و عـقدوا مـجالس الأنس و النزهة في دور حرّم سكانها الإتصال الجنسي في العلن ، و أباحوا شرب الخمر جـهراً ، و أمـا مـاذا عـملوا سـرّاً ، فـذاك أمـر يـعلمه الله و المـرتادون لتـلك الديارات بقصد الإستمتاع و اللّذة . عند ذاك انتشر التشـبيب بـالغلمان إنـتشاراً هائلاً ، و بقيت آثارها حتىٰ اليوم ، تفسد بعض المجتمعات الإسلامية ، و ستبقىٰ ما زال الشباب يسمع قصصهم المغرية بالفساد ، و مجونهم و تغزّلهم الخليع ، مع ضعف الوازع الديني فيهم . أضف إليهما إنتشار المشاكل المانعة عـن الزواج فـي هـذا العصر باطّراد .

بواعث إنتشار الشذوذ الجنسي بين المسلمين

إنّ الإنسان بطبيعته يطمح إلىٰ الرفعة و التعالي علىٰ غيره من البشر ، فإن لم يؤت حظاً من ذلك ، يحاول - لا شعورياً - ستر تأخّره ، و التهرّب من إنحطاطه بمحاكاة القوي الغالب ، و تقليده في سلوكه ، و طرق معيشته ، و قد كان القدماء

---

(١) مروج الذهب للمسعودي (٢ : ٢٨٦) .

يعبّرون عن ذلك بقولهم: الناس علىٰ دين ملوكهم [1].

و لما كانت الطبقة الحاكمة من الأمراء و من اتصل بهم من الندماء، و الشعراء، و غيرهم من ذوي النفوذ و الجاه، قد راج بينهم الشذوذ الجنسي، و انتشر انتشاراً فظيعاً في أخريات القرن الثاني الهجري، أدىٰ ذلك إلىٰ سريان هذا الداء الوبيل إلىٰ سائر طبقات الشعب يومذاك.

و قد نستطيع أن نعدّ، ما ذكرناه، السبب الأول في إنتشار هذه الرذيلة بين المسلمين منذ ذلك العصر.

بداية إنتشار الشذوذ الجنسي في نهاية القرن الثاني الهجري

إنّ الباحث المتتبع في عصور الإسلام الأولىٰ قد لا يجد من هذا الإنتشار المشين للشذوذ الجنسي قبل عصر الرشيد، و لا يجد التشبيب بالغلمان و التغزل بالجنس الذكر في الأدب العربي قبله.

فالأمويون و إن كانوا قد شجّعوا الشعراء الغزليين بالتشبيب بنساء البيوتات الكريمة في مكة و المدينة، و روّجوا السكر و الغناء بين أهليهما لإلهائهم عن معارضتهم، و صرفهم عن تأييد الناقمين علىٰ بني أمية، من أمثال السبط الشهيد، و ابن الزبير، و ابن غسيل الملائكة في واقعة الحرّة، و التائبين من أهالي الكوفة ثم المختار.

إن كان الأمويون قد روّجوا كل ذلك لغرض سياسي، فإنّ العباسيين قد جرفهم الترف في الشهوة الجنسية إلىٰ الفحص عن متعة جديدة صعبة المنال (اللواط بالغلمان)، ثم أصبح ذلك (موضة) العصر العباسي، و علىٰ أثر ذلك إنفتح باب التغزّل بالغلمان في الأدب العربي فولجه شعراء المجون بكل تهتك و استهتار.

---

(١) و هذا هو الدافع لأمثال الدكتور الوردي، من ذوي الشخصيات الضعيفة، إلىٰ تقليد الغربيين الأقوياء و محاكاتهم في كل شيء.

و كان الرشيد نفسه أول خليفة عباسي بل أول خليفة من المسلمين يروىٰ منه التغزّل بالغلمان و قد روىٰ له الشابشتي في كتابه الديارات ص ١٤٥ و ١٤٦ هذه الأبيات :

ملكت من أصبح لي مالكا لكـنـّه فـي مـلكه ظـالم
أحببته من بين هـذا الورىٰ و هــو بـحبي خَـبِرٌ عـالم
قـبيحُ فـعل حسـن وجـهه يـعذر فـي أمـثاله اللائـم
أحسن مـن أبـصره مـبصر لو أنـه فـي حسـنه راحـم

محمد الأمين

و كان محمد الأمين ابن الرشيد أول خليفة إشتهر بالشغف بالغلمان فقد كان يهوىٰ غلامه كوثر ، قال الخطيب في تاريخه [1] :

(خرج كوثر غلام الأمين ليرىٰ الحرب فأصابته رجمة فجلس يبكي فوجّه محمد من جاء به و جعل يمسح الدم عن وجهه ثم قال :

ضــربوا قـرة عـيني و من أجـلي ضـربوه
أخـــذ الله بـــقلبي مـن أنـاس أحـرقوه

و لم يستطع أن يتمم البيتين فأتمهما عبد الله بن أيوب التميمي بقوله :

مــا لمــن أهـوىٰ شـبيه فـــبه الدنـــيا تـــتيه
وصـــله حــلو و لكــن هـــجره مـــرّ كـــريه

إلىٰ آخر الأبيات ...

فأوقر له ثلاثة أبغل دراهم .

و لما بلغه بأن الناس يلومونه فيه و في ترك النظر في أمور الناس ، قال :

مــا يــريد النــاس مـن صـ ـب بـــمن يــهوىٰ كــئيب

---

(١) في ج ٤ / ص ٣٣٩ من تاريخ بغداد .

ليس أن قيس خليا قلبه مثل القلوب
كوثر ديني و دنيا ي و سقمي و طبيبي
أعجز الناس الذي يلـ ـحي محباً في حبيب [(١)]

و لما رأت زبيدة أنّ ولدها الأمين قدّم الخدم و آثرهم و رفع منازلهم، ككوثر و غيره، و رأت شدّة شغفه و اشتغاله بهم، إتخذت الجواري الحسان الوجوه، و عمّمت رؤسهنّ، و جعلت لهنّ الطرر و الأصداغ [(٢)]. و ألبستهنّ الأقبية [(٣)] و المناطق [(٤)] فبانت قدودهنّ، و برزت أردافهن، و بعثت بهنّ إليه فاستحسنهنّ و اجتذبن قلبه و أبرزهنّ للناس من الخاصة و العامة، و اتخذ الناس من الخاصة و العامة الجواري المطمومات [(٥)] و ألبسوهن الأقبية و المناطق و سمّوهنّ الغلاميات [(٦)].

أرأيت أنّ أمير المؤمنين محمد الأمين لم يكن يرغب في الجواري الحسان حتىٰ ألبستهن زبيدة لباس الغلمان، و أخرجتهن بزي المرد الملاح. إقرأ هذه القصة و تدبّر، هل تَصدُق علىٰ مَن اتّخذ الغلاميات قول الدكتور: إنّه نشأمن تحبيذ الحجاب و حجر المرأة)، (عادة الإنحراف الجنسي في الرجل و المرأة معاً. فالإنسان ميال بطبيعته نحو المرأة، و المرأة كذلك ميالة نحو الرجل. فإذا منعنا

---

(١) تاريخ الخطيب (٤ : ٣١٤).

(٢) يقصد أنّها صففت شعر رؤسهن كتصفيف شعر الغلمان في ذلك العصر.

(٣) الأقبية : واحدها القباء، و هو ما يسميه العراقيون بـ(الزبون).

(٤) المناطق : واحدها المنطقة ما يشتد به الوسط (حزام).

(٥) طمّ البئر دفنها و سواها، و الجواري المطمومات كناية عن ترك نكاحهن من الطريق الطبيعي.

(٦) نقلتها ملخصاً عن مروج الذهب للمسعودي (٢ : ٥١٧).

و في الديارات ص ١٠٥ عن عريب المغنية أنّها قالت : كنت وصيفة لمحمد الأمين ألبس قباء و منطقة و أقوم علىٰ رأسه و ربما سقيته وسني إذ ذاك (١٧) سنة.

هذه الطبيعة من الوصول إلىٰ هدفها بالطريق المستقيم لجأت إضطراراً إلىٰ السعي نحوه في طريق منحرف [1] ؟!

فهل الذين اتخذوا الغلاميات من الخاصة و العامة في ذلك العصر إتخذوهن لأنّهم مُنعوا من الوصول إلىٰ المرأة ؟ أم أنّ ذلك كان من العامة تقليداً منهم للطبقة الحاكمة ؟ و كان من أمير المؤمنين و الخاصة ، بدافع الترف و الإنطلاق وراء هوىٰ النفس بكل حرية ؟! « وَ إذا أرَدنَا أن نُهْلِكَ قَريَةً أمَرْنَا مُتْرَفيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا)[2] .

و ما أرىٰ الدكتور الوردي إلاّ محبذاً لهؤلاء في عملهم ، لأنّهم عالجوا (داء الصراع النفسي) في أنفسهم بهذا العلاج !!! .

في عصر المأمون

شكىٰ البصريون إلىٰ المأمون عن قاضيهم يحيىٰ بن أكثم بن عمر بن أبي رياح التميمي (و أنّه أفسد أولادهم بكثرة لواطه) ، و (ظهرت منه الفواحش و ارتكاب الكبائر) ، و ذكروا له أبياته (في صفة الغلمان و مراتبهم) فعزله عنهم فقال فيه إبن أبي نعيم :

يا ليت يحيىٰ لم يلده أكثمه
و لم تطأ أرض العراق قدمه
ألوط قاض في العراق نعلمه

قال المسعودي : و ضرب الدهر ضرباته ، فاتّصل يحيىٰ بالمأمون ، و نادمه و رخّص له في أمور كثيرة فقال له يوماً : يا أبا محمد مَنِ الذي يقول :

قاضٍ يرىٰ الحدّ في الزناء و لا
يرىٰ علىٰ مَن يلوط من بأسٍ

---

(١) وعّاظ السلاطين ص ٩ .

(٢) الإسراء : ١٦ .

قال : ذلك إبن أبي نعيم القائل :

ما أحسب الجور ينقضي و علىٰ الأمة وال من آل عباس .

فخجل المأمون و نفىٰ الشاعر إلىٰ السند .

و بلغ من إذاعته و مجاهرته باللّواط أنّ المأمون أمره أن يفرض لنفسه فرضاً يركبون بركوبه ، و يتصرفون في أموره ، ففرض أربعمائة غلام مرد إختارهم حسان الوجوه فافتضح بهم و قال في ذلك راشد بن إسحاق أبياتاً منها :

(متىٰ تصلح الدنيا ويصلح أهلها
و قاضي قضاة المسلمين يلوط [1])

ليت شعري إن كان عزل يحيىٰ بن أكثم عن قضاء البصرة لاستهتاره باللواط ، فما الذى سوّغ للمأمون أن يوليه أرفع منزلة دينية بعد الخلافة و يجعله قاضي قضاة المسلمين ، و يرخص له في أمور كثيرة ، أكان اللواط تحت سمع الخليفة و بصره لا حرج فيه ؟! .

ثم أترىٰ مَن كان يخدمه اربعمائة غلام أمرد لم يكن يتهيّأ له مئات الجواري الحسان لتكون الطبيعة قد ألجأته إلىٰ السير في الطريق المنحرف كما يقول الوردي [2] !! .

فى عصر المتوكل

الخليفة و وزيره و خادمه .

كان الفتح بن خاقان يعشق شاهك خادم المتوكل و له فيه أشعار منها قوله :

أشاهك ليلي مذ هجرت طويل
و عيني دماً بعد الدموع تسيل
إلىٰ آخر الأبيات ...

---

(١) راجع مروج الذهب للمسعودي (٢ : ٣٢٨ - ٣٢٩) .

(٢) راجع قبله ص ٢٩ .

و اشتهر أمره فيه حتىٰ بلغ المتوكل . (و كان أبو عبد الله نديم المتوكل يسعىٰ فيما يحبّه الفتح ، فعرف المتوكل الخبر و قال له : إنّما أردتك و أدنيتك لتنادمني ، ليس لتقود علىٰ غلماني) . فنفاه إلىٰ تكريت و أمر بقطع أذنه [1] .

المتوكل يغري الخليع بالتغزّل بخادمه

كان المتوكل يعرض عليه الهدايا في يوم نوروز ، و شفيع الخادم واقف و عليه الأقبية الموردة (و هو أحسن الناس وجهاً فيها) ، فجعل المتوكل يدفع إلىٰ شفيع قطعاً من (العنبر ، و يقول : إدفعها إلىٰ حسين ، و اغمز يده فيفعل ذلك) . فأنشأ الخليع يقول أبياتاً منها :

له عبثات عند كل تحية
بكفيه تستدعي الخليّ إلىٰ الوجد
تمنّيت أن أسقىٰ بكفيه شربة
إلىٰ آخر الأبيات ...

(فأمره المتوكل أن يسقيه ، و قال : قد أعطيناك أمنيتك [2]) .

إنّي ليأخذني العجب كلما فكرت في أمر أميري المؤمنين المتوكل و المأمون و شدة تنكيلهما بالقائلين بخلق القرآن أو قِدَمه ، في حين أنّهما كانا لا يريان في اللواط من بأس [3] !!!

و لم يكن الخلفاء من بعد هؤلاء ، أقلّ غراماً بالغلمان من أسلافهم ، فإنّ

---

(١) ص ٤ و ٥ من الديارات للشابشتي .

(٢) الديارات للشابشتي ص ٣٧ - ٣٨ ، و في مروج الذهب للمسعودي (٢ : ٣٩٤) أنّ المتوكل أمره أن يقول فيه أبياتاً .

(٣) أمر المأمون بمعاقبة القائلين بقدم القرآن من أمثال أحمد بن حنبل ، و المتوكل أمر بمعاقبة القائلين بأنّ القرآن مخلوق .

المعتز كان يهوىٰ يونس بن بغا ، فلم يكن يفارقه و لا يصبر عنه ، و قد تغزّل فيه بأبيات كثيرة (١) .

و كان المعتمد يهوىٰ غلامه بدر الجلنار ، و له أبيات غزل فيه و في غيره من الغلمان (٢) .

و كان للمعتضد غلام يهواه اسمه بدر و يكنّىٰ أبا النـجم ، و كـان يـلتمس الحوائج به من المعتضد ، و كانت الشعراء تقرن مدح بدر بمدح المعتضد .

و رآه ذات يوم قادماً فتمثل قائلاً :

فــي وجـهه شـافع يـمحوا إسـاءته (٣)

و قال المكتفي في عبد له :

مــن لي بأن تــعلم مــا ألقىٰ
فـــتعرف الصــبوة و العشــقا
مــا زال لي عــبداً و حــبي له
صــيرني عـــبداً له رقـــا
أعــتق مــن رقــي و لكــنني
مــن حـبه لا أمـلك العـتقا (٤)

و كان أمراء المسلمين - أولاد الخلفاء - في ذلك العصر - عصر الفساد - مـن أمثال صالح بن الرشـيد (٥) و الفـضل بـن العـباس بـن المأمـون أكـثر تـهتكاً و استهتاراً من آبائهم الخلفاء .

---

(١) الديارات للشابشتي (١٠٤ - ١٠٧) و (٦٤ - ٦٥) .

(٢) الديارات للشابشتي (٦٦ - ٦٩) .

(٣) مروج الذهب للمسعودي (٢ : ١٩٢ - ٤٩٣) . في ترجمة المكتفي .

(٤) مروج الذهب للمسعودي (٢ : ٤٩٩) .

(٥) هو إبن هارون الرشيد من زوجته رثـم . راجـع الديـارات للشـابشتي ص (٣٨ - ٣٩) و الأغاني (٦ : ١٧٦ و ١٧٧) .

و كان هؤلاء الحكام يشجّعون شعراء المجون ، من أمثال الحسين بن الضحاك الخليع [1] علىٰ التغزّل بالغلمان ، ويهبونهم العطايا الجزيلة علىٰ ذلك ، في حين أنّهم كانوا يسجنون موسىٰ بن جعفر (ع) و يسمّمونه في السجن [2] ، و يحجرون علىٰ علي الهادي (ع) بعيداً عن دياره [3] ، و يضربون أمثال إبن حنبل علىٰ رأيه ، و ينصبون يحيىٰ بن أكثم علىٰ قضاء المسلمين ، فمن الأحرىٰ أن نسمّي تاريخ ذلك العصر بتاريخ عصر الطغيان ، لا تاريخ العصر الذهبي !!!

إذا كان أمير المؤمنين في العصر الذهبي يغري باللّواط ، و وزيره يلوط و نديمه يقود ، و قاضي قضاة المسلمين يلوط ، فإنّ الرعية تكون كما قال الشاعر :

إذا كان رب البيت بالدف مولعاً
فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

فهذا هو السبب الأول - علىٰ رأيي - في إنتشار اللواط و السحاق بين المسلمين منذ ذلك العصر . و كان السبب الثاني في إنتشار اللواط و غيره كالزنا ، و شرب الخمر ، و حياة المجون ، إنتشار الديارات المسيحية في البلاد الإسلامية .

---

(١) شاعر ماجن ، نادم الأمين و هجره المأمون ، ثم نادم بقية الخلفاء إلىٰ المستعين ، و سمي بالخليع لكثرة مجونه و خلاعته ، مات ببغداد سنة ٢٥٠ هـ. راجع الديارات للشابشتي (ص ٢٢ و ٣٥ و ٣٩) ، و معجم الأدباء (٤ : ٣٠ - ٣٨) .

(٢) موسىٰ بن جعفر (ع) سابع أئمة أهل البيت ، ولد بالحجاز سنة ١٢٨ هـ ، و بعث به الرشيد مخفوراً الىٰ البصرة ، و سجنه بها ، و ثم سجنه ببغداد و دسّ إليه السم في السجن ، فتوفي سنة ١٨٣ بعد أن بقىٰ في السجن ١٥ سنة .

(٣) علي الهادي عاشر أئمة أهل البيت (ع) ، ولد بالقرب من المدينة سنة ٢١٤ هـ ، و جلبه المتوكل العباسي إلىٰ سامراء ، و بقي فيها حتىٰ توفي سنة ٢٥٤ هـ ، و قبره بها مزار للمسلمين .

الديارات المسيحية

و للديارات المسيحية في العصر العباسي قصص خلاعية ذكرتها الكتب الأدبية المؤلفة في نفس العصر ، كالديارات للشابشتي ، و الأغاني للأصبهاني ، و معجم البلدان لياقوت الحموي .

و كان مؤسّسوا تلك الديارات قد شيدوها في أماكن حسنة نزهة بين الحدائق و الأشجار ، و قد اشتهرت بعض تلك الديارات بجودة خمورها التي كانت تصدرها إلىٰ البلاد المجاورة لها .

و كان أهل البطالة و الخلاعة يجدون في تلك الأديرة من الفتيات الحسان و الأمارد الملاح ما يجلبهم إليها ، فكانوا يقصدونها للهو و الطرب ، و يعتكفون فيها و يقضون أيامهم بين السكر و الغناء ، و خاصة في أيام أعياد النصارىٰ ، إذ كان يجتمع إليها خلق كثير من الجنسين طلباً للأنس و المتعة ، و قد اقتطفنا من قصصهم الكثيرة نتفاً للبرهنة علىٰ مبلغ تأثير تلك الديارات في أخلاق المجتمع آنذاك .

يقول الشابشتي في ترجمته عن دير در مالس [١] :

(و أعياد النصارىٰ ببغداد مقسومة علىٰ ديارات معروفة ، منها أعياد الصوم [٢] . فالأحد الأول : عيد دير العاصية [٣] ، و الأحد الثاني دير الزريقية [٤] ، و الأحد الثالث : دير الزندرود [٥] ، و الأحد الرابع دير در مالس هذا ، و عيده أحسن عيد ، يجتمع نصارىٰ بغداد إليه ، و لا يبقىٰ أحد ممّن يحب اللهو و الخلاعة

---

(١) كان هذا الدير في أعلىٰ بغداد بالجانب الشرقي منها .

(٢) يقول الأستاذ كوركيس : يريد به (الصوم الكبير) و مدته خمسون يوماً / الديارات ص ٣ .

(٣ ، ٤) لم يعلم عنهما شيء .

(٥) كان بالجانب الشرقي من بغداد ، و أرضها كلها فواكه و أترج و أعناب ، و هي من أجود الأعناب التي تعصر ببغداد ، و فيها يقول أبو نؤاس :

فسقني من كروم الزندرود ضحى .. الخ راجع الديارات ص ٢١٥ .

إلاّ و اتّبعهم . و يقيم الناس فيه الأيام ، و يطرقونه في غير الأعياد [١]) .
و ذهب إليه عبد الله بن حمدون النديم [٢] طلباً للأنس بعد أن نفاه المتوكل [٣] لقيادته علىٰ غلامه شاهك [٤] ، فبقي هناك و شرب و طابت نفسه ، و شغف بالأحداث الذين كانوا يقضون حوائجهم و يجيئونهم بالطرفة و التحية [٥] ، فأنشد في وصفهم :

يـا ديـر درمـالس مـا أحسـنك
و يـا غـزال الديـر مـا أفـتنك
الىٰ آخر الأبيات ...

دير سمالو

كان شرقي بغداد (و عيد الفصح ببغداد ، فيه منظر عجيب . لأنّه لا يبقىٰ نصراني إلاّ حضره) و لا أحد من أهل التطرّب و اللهو إلاّ قصده للتنزه فيه . و هو أحد منتزهات بغداد المشهورة ، و مواطن القصف المذكورة .
و للشعراء فيه و في سكانه غزل و تشبيب [٦] .

---

(١) راجع الديارات ص ٣ .
(٢) كان نديماً للمتوكل . راجع الديارات ص (٤ – ٨) .
(٣) كان عاشر خلفاء بني العباس و توفي سنة ٢٤٧ هـ . راجع المسعودي (٢ : ٣٦٨ – ٣٩٨) .
(٤) راجع ما قبله ص ٣١ .
(٥) التحية : التحفة و الطرفة ، طاقة من الأزهار و الرياحين أو غيرهما مما يحييٰ بها الندماء . راجع الديارات ص (٤) .
(٦) راجع الديارات ص (٩ – ١٠) ، و معجم البلدان .

دير الثعالب

كان بالجانب الغربي من بغداد علىٰ بُعد ميلين ، قال الشابشتي :
(و أهل بغداد يقصدونه و يتنزّهون فيه ، و لا يكاد يخلو من قاصد و طارق .
و له عيد لا يتخلّف عنه أحد من النصارىٰ و المسلمين) .
و لابن دهقانة الهاشمي [1] فيه أبيات منها :

دير الثعالب مألف الضلال
و محل كل غزالة و غزال
و منعم دين المسيح دينه
غنج يشوب مجونه بدلال [2]

و للشاعر سبط بن التعاويذي المتوفي سنة ٥٥٣ هـ فيه أبيات منها :

و غزال علقته   يوم دير الثعالب
من ظباء الصريم يخـ   ـطر في زي راهب [3]

دير الجاثليق

كان ببغداد . قال الشابشتي [4] فيه : (و هو مقصود مطروق لا يخلو من المتنزّهين فيه و القاصدين له . و فيه رهبانه و فتيانه ، و من يألفه أهل الخلاعة و البطالة) .

---

(١) إبن دهقانة هذا من ولد إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، و يعرف بأبي جعفر محمد بن عمر . (الديارات ص ١٧) .

(٢) راجع الديارات ص (١٦ - ١٧ و ٢١٩ - ٢٢٠) ، و معجم البلدان (٤ : ١٢٩) .

(٣) ذيل الديارات ص (٢٢٠) و يحكي في ص (٢٢١ - ٢٢٢) عن راهبة أغرت إثنين في يوم عيد (الذكران) .

(٤) في الديارات ص (١٨)

و قالت الشعراء فيه و وصفته ، و لمحمد بن أمية الكاتب [1] فيه :

تــــذكرت ديــر الجــاثليق و فــتية
بــهم تــمّ لي فــيه الســرور و أسـعفا
أغــازل فــيه أدعــج الطـرف أهـيفا
و أسـقى بـه مسكـية الطـعم قـرقفا[2]

دير مديان [3]

كان ببغداد . قال الشابشتي : (يقصد للتنزه ، و لا يخلو من قاصد و طارق ، و هو من البقاع الحسنة النزهة) .

(و كان أبو علي بن الرشيد يلازم هذا الدير و يشرب فيه ، و كان له قيان [4] يحملهم إليه و يقيم به الأيام لا يفتر عزفاً و قصفاً ، و كان شديد التهتك ، و كان من يجاور الموضع يشكون ما يلقون منه) .

فنهاه خليفة السلطان ببغداد ، فجرىٰ بينهما كلام أغضب الوالي فيه . فجاء إليه ليلاً ، و أمر أن يفتح باب الدير ، و ينزل به علىٰ الحال التي هو عليها ، فأُنزل به و هو سكران ، فجلده ٢٠ جلدة و أرسل به إلىٰ داره[5] .

دير قوطا

كان علىٰ بعد سبع فراسخ من بغداد بالقرب من الخالص . قال الشابشتي :

---

(١) كان كاتباً للفضل بن ربيع / الديارات ص (١٩) .

(٢) القرقف من أسماء الخمر .

(٣) الديارات ص (٢١ – ٢٢) ، و معجم البلدان (٤ : ١٧١) .

(٤) القيان : واحدها القينة و هي الأمَة المغنية .

(٥) الديارت ص (٢١ – ٢٣) .

(إنّ في هذا الموضع ما يطلبه أهل البطالة و الخلاعة من الوجوه الحسان ، و البقاع الطيبة النزهة ، فليس يكاد يخلو . و لعبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع [1] فيه :

يـــا ديـــر قـــوطا ، لقـد هـيجت لي طـربا
أراح عـــــن قـــلبي الأحـــزان و الكـــربا
و شــــادن مــــا رأت عـــيني له شـــبها
فـــي النـــاس ، لا عـجماً مـنهم و لا عـربا
أقـــمت بـــالدير حـــتىٰ صـــار لي وطـــنا
مـــن أجـــله و لبست المســح و الصـلبا[2]

عمر الزعفران

قال الشابشتي : (و شرابه موصوف يحمل إلىٰ نصيبين و غـيرها ، و ليس يخلو من أهل القصف و اللعب ، فهو و سائر بقاعه معمورة بمن يطرقه [3]) .
و لمصعب الكاتب [4] في دير عمر الزعفران أبيات منها :

عـــمرت بـــقاع عـــمر الزعـــفران ... بـــفتيان غـــطارفة هـــجان
و بـــــنوهم و يـــــوحنا و شـــعيا ... ذوو الإحســـان و الصـــور الحســـان

(١) كان عبد الله هذا (صاحب غزل و مجون ، كثير التطرح في الديارات و الحانات و الأتباع لأهل اللهو و الخلاعة ، و كان في أيام المعتصم . راجع الديارات ص (٤١ و ٤٢) .
(٢) المسح ثوب من الشعر يلبسه الرهبان تقشفاً .
(٣) الديارات ص (١٢١) .
(٤) يقول الشابشتي : (و كان مصعب هذا من أشدّ الناس تهتّكاً و أكـثرهم خـلاعة و مـجوناً و استهتاراً بالمرد و تطرحاً في الحانات و الديارات) . الديارات ص (١٢٣) .

رضيت بهم من الدنيا نصيبي	غنيت بهم عن البيض الغواني
أقبّل ذا و ألثم خد هذا	و هذا مسعد سلس العنان[1]

دير مريحنا

قال الشابشتي : (و هذا الدير إلىٰ جانب تكريت مطروق مقصود لا يخلو من المتطرّبين و المتنزّهين) .

و قال عمرو بن عبد الملك الوارق [2] :

أرىٰ قلبي قد حنّا	إلىٰ دير مريحنّا
إلىٰ ظبي من الأنس	يصيد الأنس و الجنّا
إلىٰ أحسن خلق الله	إن قدّس أو غنّا
فلما دارت الكأس	أدرنا بيننا لحنا
و لما هجع السمّا	رُ نمنا و تعانقنا[3]

دير مرمار

كان جنوب سامراء و حوله كروم و شجر ، و كان من المواضع النزهة و البقاع الطيبة الحسنة .

و للفضل بن العباس بن المأمون فيه أبيات منها :

---

(١) الديارات ص (١٢٢) ، و معجم البلدان (٤ : ١٤٢) .

(٢) قال الشابشتي : و كان عمرو هذا من الخلعاء المجان ، المنهمكين في البطالة و الخسارة و الإستهتار بالمرد و التطرّح في الديارات .

(٣) الديارات ص (١٤٩ – ١١٠) ، و معجم البلدان (٤ : ١٧٩) .

أنضيت فـي سـر مـن را خـيل لذاتـي
و نـلت فـيها منىٰ نـفسي و شـهواتـي
عــمرت فــيها بــقاع اللـهو مـنغمساً
فـي القـصف مـا بـين أنـهار و جـنّات
بــدير مــرمار إذ نــحي الصـبوح بـه
و نــــعمل الكأس فـــيه بـــالعشيات
بـين النــواقــيس و التـقديس آونـة
و تـــارة بـــين عــيدان و نــايات
و كــم بــه مــن غــزال أغـيد غـزل
يـــصدنا بـــاللحاظ البـــابليات

و ذكر الفضل هذا ، أنـّه خرج ذات يوم مع المعتز ، و يونس بن بغا للصيد فانقطعوا عن الموكب ، و شكا المعتز العطش ، فأرشدهم الفضل إلىٰ هـذا الديـر فصاروا إلىٰ الديراني فرحب بهم و سقاهم و أطعمهم .

قال الفضل : فسألني الديراني عن المعتز و يونس بن بغا ، فقلت : هما فتيان من أبناء الجند . فقال : بل مفلتان من أزواج الحور . فقلت : هذا ليس من دينك و لا اعتقادك ! قال : هو الآن من ديني ! فضحك المعتزّ . فقال لي المعتز قل له ، بينك و بينه : من تحب أن يكون معك من هذين و لا يفارقك ؟ قال : فقلت له ، فـقال : كلاهما و تمرا [1] ، فضحك المعتز حتىٰ مال من الضحك ، فقلت للديراني : لا بد من أن تختار . فقال : الإختيار فـي هـذا دمـار مـا خـلق الله عـقلاً يـميز بـين هؤلاء ... الخ [2] .

---

(١) مثل عربي قديم (مجمع الأمثال للميداني ٢ : ٦٥) .

(٢) راجع الديارات ص (١٠٤ – ١٠٥) ، و الأغاني (٨ : ١٧٩) .

دير العذارىٰ [1]

يقول الشابشتي : و إنّما سمي بدير العذارىٰ لأنّ فيه جوار متبتّلات عذارىٰ ، هنّ سكانه و قطانه فسمّي الدير بهن .

و روىٰ ياقوت الحموي : (أنّ جماعة من اللصوص مرّوا عليها ليلاً ، و شدّوا القس وثاقاً لينيكوا الراهبات الأبكار ، و إذا بهنّ ثيّبات كلّهنّ قد فرغ القس منهنّ ، قبلهم فقالوا فيهنّ :

و دير العذارىٰ فضوح لهن ... و عند القسوس حديث غريب
خلونا بعشرين صوفية ... و نيك الرواهب أمر غريب

و في الديارات : فقال بعضهم في ذلك :

و ألوط من راهب يدّعي ... بأنّ النساء عليه حرام
يحرم بيضاء ممكورة [2] ... و يغنيه في البضع عنها غلام

إلىٰ آخر الأبيات ...

دير باشهرا

قال الشابشتي : (و هذا الدير علىٰ شاطئ دجلة ، بين سامراء و بغداد ، و هو دير حسن ، عامر ، نزه كثير البساتين و الكروم . و هو أحد المواضع المقصودة و الديارات المشهورة ، و المنحدرون من سر من رأىٰ و المصعدون إليها ينزلون ه . فمن جعله طريقاً ، بات فيه و أقام به إن طاب له . و من قصده أقام الأيام في ألذّ

---

(١) كانت من ناحية دجيل ، قال الشابشتي : و هو دير حسن عامر حوله البساتين و الكروم ، و فيه جميع ما يحتاج إليه . و لا يخلو من متنزه يقصده للشرب و اللعب . راجع الديارات ص (١٦٩ - ٧٠) ، و معجم البلدان (٤ : ١٥٧) ، و في عيون الأخبار (٤ : ١١٢) ، و المسالك ص (٢٦٠ - ٢٦١) .

(٢) الممكورة المستديرة الساقين .

عيش و أطيبه ، و أحسن مكان و أنزهه .

و لأبي الميناء[1] فيه ، و كان نزله و أقام به أياماً ، و استطابه و قال فيه أبيات :

نـــزلنا ديـــر بـــاشهرا ... عـــلىٰ قســـيسه ظـهرا
و طاب الوقت في الدير ... فـــرابـــطنا بـــه عشـرا
و سقينا به الشـمس[2] ... و أخـــدمنا بـــه البـدرا
و نـلنـا كـل مـا نـهوا ... ه مـــن لذاتـنا ، جـهرا
فـتكـنا و تـهتكـنا ... و مـــثلي هـتك الســترا
و قـــد ســـاعدنا ربـــا ... ن طوعاً منه ، لا جـبـرا

إلىٰ آخر الأبيات

دير احويشا

كان بديار بكر ، و كان يحمل خمره إلىٰ ما حوله من البلدان لجودته[3] ، و كان الخلعاء و المتطرّبون أغلب عليه من أهله و للبادي الشاعر[4] فيه أبيات منها :

نـــؤم بـــدير احـــويشا غـزالا ... غريب الحسن كالقمر اللياح[5]

---

(١) هو محمد بن أبي القاسم التمامي ، مات سنة ٢٨٢ هـ. راجع الديارات ص (٥٢ - ٦٠) .

(٢) قال الدكتور مصطفىٰ جواد لعلّ الأصل (و سعينا به الشمس) ، و هذا كناية عن جمال الخادم . أقول : لعلّ الناظم يشبّه الخمرة بالشمس في إشعاعها فيكون كناية عن الخمر و يقصد أنّهم قد سقوه خمراً .

(٣) معجم البلدان (٤ : ١٢١) ، و الديارات ص (١٢٧) .

(٤) هو أبو بكر أحمد بن محمد كان من ذوي المجانة و الخلاعة .

(٥) اللياح : الأبيض الناصع .

نـــزلنا مـــنزلاً حســـناً أنـــيقا   بـــما نـهواه مـعمور النـواحـي
و ســـاعفنا الزمـان بـما أردنـا   فأبـــــنا بـــالفلاح و بـــالنجاح

دير الطور[1]

فـــي الديـــارات و حـــوله كـــروم تـــعصر ، فـالشراب عـندهم كـثير ، و الناس يقصدونه من كل موضع فيقيمون به و يشربون فيه ، و لمـهلهل [2] فـيه أبيات منها :

نهضت إلىٰ الطور في فـتية
سراع النهوض إلىٰ ما أحب
أنخت الركاب عـلىٰ ديـره
و قضيت من حقه ما يجب
و أحـضرتهم قـمراً مشـرقاً
تميل الغصون به في الكثب
إلىٰ آخر الأبيات ...

دير الروم ببغداد

و كان مدرك بن علي الشيباني يطرق هذه البيعة في الآحاد و الأعياد للنظر إلىٰ من فيها من المردان ، و الوجوه الحسان من الشمامسة و الرهبان ، في خلق

---

(١) الديارات ص (١٣٢ - ١٣٣) ، و معجم البلدان (٤ : ١٥٢ - ١٥٣) .

(٢) هو مهلهل بن يموت بن موسىٰ بن حكيم ، و كان من شعراء القرن الرابع الهـجري ، قـال الشابشتي : (و كان المهلهل من المطبوعين في الشعر ، و المنهمكين فـي الخـلاعة و اللـعب و التطرح في مواطن اللهو و الطرب ، ملازماً للحانات و الديارات) .

ممن يقصد الموضع لهذا الشأن .

و مما قال فيه :

ريـــــم بــديـر الروم قــتلي　　بـمقلة كـحلاء لا عـن كـحلي

و طـــرة بـهـا اسـتطار عـقلي　　و حسـن دلّ و قـبيح فـعلِ[1]

دير الزندرود

كان بالجانب الشرقي من بغداد ، و أرضها كلها فواكه و أعناب و هي من أجود الأعناب التي تعصر ببغداد ، و قال جحظة فيه :

سقياً و رعياً لديـر الزنـدرود و مـا
يحوي و يجمع مـن راح و ريـحان
ديــر تــدور بـه الأقـداح مـترعة
من كف ساق مريض الطرف و سنان
و العــود يــتبعه نــاي يــوافــقه
و الشدو يحكمه غـصن مـن البـان
و القوم فوضىٰ تـرىٰ هـذا يـقبل ذا
و ذاك إنسان سوء فـوق إنسـان[2]
إلىٰ آخر الأبيات ...

---

(١) الديارات ص (٢١٥) ، و معجم البلدان (٤ : ١٤١) .

(٢) الديارات ص (٢١٥ – ٢١٦) ، و معجم البلدان (٤ : ١٤٣ – ١٤٤) .

دير الخوات [1]

قال الشابشتي : (دير كبير عامر يسكنه نساء مترهّبات ، متبتّلات [2] فيه . و عيده الأحد الأول من الصوم . يجتمع إليه كل من يقرب منه مـن النـصارىٰ و المسلمين ، فيعيّد هؤلاء و يتنزّه هؤلاء . و في هذا العيد ليلة الماشوش ، و هي ليلة تختلط النساء بالرجال [3] ، فلا يرد أحد يده عن شيء ، و لا يرد أحد أحداً عن شيء . وهو من معادن الشراب ، و منازل القصف [4] ، و مواطن اللهو) .

هل يدعوا الدكتور الوردي إلىٰ الحياة في مجتمع كهذا ليعيش الإنسان حراً طليقاً ، فلا يصاب بمرض إزدواج الشخصية - أمّ الأمراض الإجتماعية - ؟[5] .

دير زرارة

كان بالقرب من الكوفة علىٰ طريق بغداد . قال الشابشتي : (و هو موضع نزه حسن ، كثير الحانات و الشراب ، لا يخلو ممّن يطلب اللعب و اللّهو و يؤثر البطالة . و هو من المواطن المستصلحة لذلك) .

قال : خرج يحيىٰ بن زياد [6] و مطيع بن أياس [7] حاجّين ، فلما قربا من

---

(١) الخوات تحريف الأخوات ، و المقصود منها الراهبات . و كان هذا الدير بعكبرا ، و تـلول عكبرا لا تزال موجودة في الجنوب الشرقي من بلدة سميكة الحالية . (الديارات ص ٢٢٩) ، و معجم البلدان (٤ : ١٣٦ - ١٣٧) .

(٢) متبتلات أي تاركات للزواج ، و متقطعات عن الدنيا إلىٰ الله .

(٣) الديارات ص (٦٠ - ٦١) ، و يقول الأستاذ كوركيس و فـي « ليـلة المـاشوش لحـبيب الزيات ، و الديارات النصرانية (١٠٩ - ١١٢) » ما يدحض هذه التهمة .

(٤) القصف . الإقامة في الأكل و الشرب و اللهو . صوت المعازف . الإعلان باللهو .

(٥) راجع (شخصية الفرد العراقي) للدكتور الوردي ص (٢٠ - ٦٠) .

(٦) هو يحيىٰ بن زياد الكوفي إبن خال أبي العباس السفاح . و كان شاعراً ماجناً .

دير زرارة ، قال أحدهما لصاحبه : هل لك أن نقدم أثقالنا و نـمضي إلىٰ زرارة ، فنشرب في ديرها ليلتنا ، و نتزود من مردها و خمرها ما يكفينا إلىٰ العودة ، ثم نلحق بأثقالنا ؟ ففعلا . و سار الناس ، و أقاما ، و لم يزل ذلك دأبهما إلىٰ أن إنصرف الحاج ، فحلقا رؤسهما و ركبا بعيرين و دخلا مع الحاج ، فقال مطيع :

ألم ترني و يـحييٰ إذ حـججنا — و كان الحج من خير التـجارة
خرجـنا طـالبي حـج و ديـن — فـمال بـنا الطـريق إلىٰ زرارة
فآب الناس قد غنموا و حجوا — و أبنا مُـوقرين مـن الخسـارة

و قال أبياتاً منها :

و صـــاحبنا بـــها ديـــراً — و قســـيساً و خـــمارا
و ظـــبياً عـــاقداً بـين النـ — ـــقا و الخـــصر زنـــارا
شـــرحـــنا لك أخـــباراً — و أدمـــجناك أخـــبارا[8]

* * * *

لقد ذكرنا بعض الديارات المسيحية في العصر العباسي ، و أشرنا إلىٰ بعض ما كان يجري فيها . فماذا كان يجري فيها ؟

يقصدها الناس من كل موضع[9] ، و يتطرّح فيها أهل البطالة و الخلاعة[10] و يجدون فيها ما يطلبون[11] فهي من مواطن القصف و اللّهو[12] و الشراب عندهم

---

(٧) كان مطيع بن أياس الكوفي شاعراً خليعاً ماجناً .

(٨) راجع الديارات ص (١٦٠ - ١٦٢) ، و الأغاني (٣ : ٤١) .

(٩) راجع قبله دير الطور ص ٤٣ ، و دير الخوات ص ٤٥ .

(١٠) راجع قبله دير الجاثليق ص ٣٧ ، و دير قوطا ص ٣٨ .

(١١) راجع دير الخوات ص ٤٥ .

(١٢) راجع قبله ص ٤٣ .

كثير [١] ، و يحمل خمره إلىٰ ما حوله من البلدان [٢] فالدير مألف الضلال و محل كل غزالة و غزال [٣] .

و القوم فوضىٰ ترىٰ هذا يقبل ذا و ذاك إنسان سوء فوق إنسان

و قد يقصده طارق ليبقىٰ به ظهراً ، فيرابط به عشراً ، و يساعده ربانه طوعاً لا جبراً [٤] ، و آخران يذهبان إلىٰ الدير ليتزودا من مردها و خمرها ليلة واحدة ثم يلحقا بركب الحاج ، و إذا بهما يرابطان به موسم الحج كله [٥] .

هذه هي الديارات المسيحية في العصر العباسي : خمر ، و مرد ، وناي ، و عود .

* * * *

قد لايستطيع الإنسان من مخالفة الطبيعة في حياته و إن أعلن ذلك ، فيخضع للطبيعة سراً ، إن خالفها جهراً . و ذلك أمر موافق للطبيعة . و لكن ليس من الأمر الطبيعي أن تنقلب الديارات التي شيّدت للعبادة و الإنقطاع إلىٰ الله ، و للتبتّل و الترهّب ، إلىٰ معاصر للخمر ، و أماكن للقصف ، فيجد الخلعاء و الماجنون فيها كل ما يشتهون ، حتىٰ يأتي ذكرها مرادفاً للحانات و المواخير !!!

إنّي أشك أن يكون هذا أمراً طبيعياً ، بل أراه أمراً أُحكم تدبيره ، و الذين ذكروا الديارات لم نجد عندهم شيئاً يكشف لنا عن هذا الغموض . فإنّ قسماً منهم قد اثبت ما وقع في الديارات فكاهة و تظرفاً فحسب .

---

(١) راجع قبله دير الطور ص ٤٤ ، و دير الزندرود ص ٤٥ ، و دير زرارة ص ٤٦ .

(٢) راجع قبله عمر الزعفران ص ٣٩ .

(٣) راجع قبله دير الثعالب ص ٣٧ .

(٤) راجع قبله ص ٤٣ .

(٥) راجع قبله دير زرارة ص ٤٦ .

و قابل هؤلاء جرجي زيدان ، فوصف لنا الديارات بغير نعتها ، و خلق المناسبات في قصصه للإشادة بذكرها ، فكأنّ الغاية من وضعه القصص التي كتبها بإسم التاريخ الإسلامي بثّ الدعاية للديارات المسيحية ، و قد برع في وصفها بالروحانية المحضة ، و لعلّك لا تجد في كل ما كتب شيئاً من الحوادث الواقعة في الديارات في مؤلفاته . فهو إذن لم يكن مؤرخاً محايداً ، يبحث عن الحقيقة و التاريخ فيما يكتب ، بل هو داع من دعاة الأديرة .

لم نجد من يكشف لنا الغموض في أمر الديارات ، و يشير إلىٰ سبب إنقلابها إلىٰ حانات و مواخير في ذلك العصر ، مما لا نجده في عصرنا الحاضر و لا في سائر العصور .

و إنّي أشك في الأمر !! و لعل السياسة هي التي أفسدت الأديرة في ذلك العصر خاصة . فالمتتبع للتاريخ يرىٰ العباسيين منصرفين إلىٰ شن الحروب علىٰ الروم المسيحية صيفاً و شتاء ، و كان طبيعياً أن يؤثر في هؤلاء الغزاة حياة الخلاعة و المجون ، و تلهيهم عن الجد في الحرب ، و أنت ترىٰ في مرتادي تلك الأديرة ، الخلفاء ، و الأمراء ، و الولاة ، و الندماء [١] ، و ترىٰ أنّ تلك الأديرة كانت منتشرة في كل موضع من البلاد ، مما كان يساعد سكانها علىٰ الاطلاع علىٰ أسرار المملكة الإسلامية المترامية الأطراف ، و حركات الجيش فيها . كل ذلك يحملنا علىٰ الشك و الريبة في أمر تلك الأديرة ، و أن نرىٰ أنّ سياسة الدول المسيحية هي التي أفسدتها ، و دسّت بين أهليها من قلبها إلىٰ مواخير و حانات ، تفسد المجتمع الإسلامي .

و مهما نشك في الأمر فلا نشك في أنّ تلك الأديرة قد ساعدت علىٰ إنتشار أنواع الفسق و المجون بين المسلمين ، بما فيها اللواط ، و دعانا ذلك إلىٰ أن نرىٰ

---

(١) في الديارات ص ١٣٩ عن دير زكي (و كانت الملوك إذا اجتازت به نزلته و أقامت فيه) . و في عمر يونان ص (١٦٦ – ١٦٧) منه . و كذلك دير الأعلىٰ بالموصل ص ١١٢ من الديارات ، و كذا غيرها من الأديرة .

فيها سبباً ثانوياً لانتشار هذا الإنحراف الجنسي في ذلك العصر ، إن لم نعده السبب الأول .

بعد انتهائنا من بحث أسباب انتشار الشذوذ الجنسي في بلادنا ، نقول :

إنّ الإنحراف الجنسي ليس منحصراً بالمسلمين و ملازماً للحجاب ، كما يدّعيه الدكتور الوردي [1] ، بل إنّ الشذوذ الجنسي يمتد إلىٰ جميع العصور .

ينقل الدكتور فخري المصري في كتابه الضعف التناسلي [2] ، إنّ جيته ، الشاعر الألماني الشهير ، كتب : (عمرت اللواطة ما عمرته البشرية) .

و يقول الدكتور فخري عن اليونانيين : إنّ تاريخهم منغمس في اللواطة و اللواطة متجسّمة فيه ، فإنّه لم تكن المرأة لديهم خليقة بالتمتّع بها ، إلاّ في حالات نادرة . و إنّ متشرعهم العظيم سولون ، نادىٰ بمعاقبة اللّواطة بين الأسرىٰ لأنّهم أحقر من أن يرتفعوا إلىٰ ذلك .. الخ .

و عن الرومانيين يذكر قصصاً في ذلك ، كالقيصر نيرون ، الذي اتخذ الصبي (سورس) معشوقاً له .. الخ .

و يقول عن الفينيقيين أنّها كانت منتشرة بينهم ، و خصوصاً وسط صبيان المسارح ، و أماكن التسلية ، كالمراقص و غيرها ، و انتقلت إلىٰ مستعمراتهم ، ثم يذكر بعض قصصهم .

و يقول : و في الصين و اليابان توجد منازل للبغاء مع الذكور ، و كانت منتشرة عندهم منذ قديم الزمان ، و جائزة لديهم ، و منتشرة في عهد (١٢) قيصر من قياصرة الصين ، و العاصمة بكين كانت مركز نشرها ، و المسرح كان مركز تجنيد الصبيان لها ، و كان الأهالي يكتسبون من تقديم أولادهم إلىٰ منازل خاصة بذلك .

و إنّ أفريقيا الشمالية و الجنوبية لا تختلف عن أوربا و مصر .

---

(١) وعّاظ السلاطين ص ٨ و ٩ .

(٢) نقلت ملخصاً من ص (١٣٥ - ١٣٩) .

و في سائر أفريقيا و الجزائر مثل (يونيو)، و (مدغشكر)، و (سوماطرا)، و (جاوا) تجدها منتشرة لدرجة تجعل البغايا يحقدن علىٰ الصبيان .

و في استراليا و امريكا الشمالية حالهم كحال أوربا . و ينقل في بيان إنتشارها عند قدماء المصريين عن المجلة الشهرية للأمراض الجلدية [١] : (أنْ وجدت بردية (پابيروس) ترجع إلىٰ ..٤٥ قبل الميلاد ، و بها اللّواطة لم تكن منتشرة فقط بين المصريين ، بل و بين الآلهة أيضاً) [٢] .

أما عند العرب الجاهليين فكان ذو شناتر يطالب أبناء الملوك بما يطالب به النسوان ، و أظهر الفسق باليمن حتىٰ قتله ذو نواس [٣] .

و أنّ الكتب الدينية تحكي عن أهالي قرية سدوم [٤] ، أنّهم حين جاؤا إلىٰ لوط ليأخذوا ضيفيه (كما في التوراة ، الإصحاح ١٩ من سفر التكوين) فخرج إليهم لوط إلىٰ الباب و أغلق الباب وراءه ، و قال : لا تفعلوا شراً يا أخوتي هو ذا لي إبنتان لم تعرفا رجلاً أخرجهما إليكم ، فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم . و أما هذان الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئاً ، لأنّهما قد دخلا تحت ظل سقفي فقالوا ابعد إلىٰ هناك) .

و يقول القرآن الكريم : « وَ جاءَهُ قَومُهُ يُهرَعونَ إلَيهِ وَ مِن قَبلُ كانوا يَعمَلونَ السّيِّئاتِ قالَ يا قَومِ هٰؤلآءِ بَناتي هُنَّ أطهَرُ لَكُم فَاتَّقوا اللهَ وَ لا تُخزونِ في ضَيفي أَلَيسَ مِنكُم رَجُلٌ رَّشيدٌ * قالوا لَقَد عَلِمتَ ما لَنا في بَناتك مِن حَقٍّ وَ إنَّكَ لَتَعلَمُ ما نُريدُ [٥] » .

و في سورة أُخرىٰ : « أتَأتونَ الذُّكرانِ مِنَ العالَمينَ * وَ تَذَرونَ ما خَلَقَ لَكُم

---

(١) *Monatschr .F .prakt. Dermatol. bd. 29 , 18 , 99 Nr 9 , S , 409*

(٢) إنتهىٰ ما نقلناه عن كتاب الضعف التناسلي ص (١٣٥ – ١٣٩) .

(٣) مروج الذهب للمسعودي (٢ : ٦) ، و الكامل لابن الأثير (١ : ١٤٩) .

(٤) سدوم : هي سرمين بلدة من أعمال حلب . معجم البلدان (٥ : ٥٤) .

(٥) هود : ٧٨ – ٧٩.

رَبُّكُم مِن أزواجِكُم بَل أنتُم قَومٌ عادونَ »[1] .

قرأنا عن الأمم القديمة فرأينا المترفين ، كما أخبر التوراة و القرآن ، إنّما مالوا إلىٰ الشذوذ الجنسي ، لا لقصورهم عن نيل المرأة ، و إنّما كانوا يتركون المرأة و يطلبون الذكران .

الشذوذ الجنسي في أوربا

يقول الدكتور فخري في ص ١٧١ من كتابه الضعف التناسلي : (توجد في أكثرية عواصم البلدان الأوربية نواد و جمعيات خاصة باللواطة) . و في ص ١٧٢ منه : (و إذا كانت العواصم الأوربية كلها تقريباً مصابة بهذا الشذوذ التناسلي ، فإنّ «برلين» و «لوندرة» و «باريس» تحمل لواء الزعامة بهذا الشذوذ) .

و ينقل عن بلوخ البحاثة التناسلى الألماني أنّه قال في الفصل التاسع عشر (لغز اللواطة) من كتابه *(Das sexualleben unserer zeit, J.Bloeh Berlin (1909))* (إنّه ممّا لاشكّ فيه أنّه لا توجد تشكيلات إجتماعية للمصابين باللواطة في مدينة مثل ما لها في برلين) .

و قد ذكر بلوخ ، في نفس الفصل من كتابه ، أسماء أماكن يتخذها المصابون باللّواطة للتنزّه و الفسحة و المقابلة في عاصمة المانيا ، و أهم هذه الأماكن *Friedrichs Trasse* ، و هو أهم شارع يخترق برلين ، و *passge*، و هو ممر يوصل أهم ميدان في برلين بالشارع المذكور ، و هذا الممر يزدحم بالمارة ، و *Tiergarten* ، و هي الحديقة التي يحتضنها برلين . و أما باريس الحديثة فهناك في غابة (بلونيا) تكثر الآن إجتماعات المصابين بها .

و أما في باريس التاريخية ، فكانت أماكن متعددة يتقابل فيها المصابون

---

(١) الشعراء : ١٦٥ – ١٦٦ .

بها، و كانت توجد (منازل لبغاء الذكور) ، وكان يوجد منزل في (*Rue du Doyenne de Paris*) معد لبغاء الذكور منذ سنة ١٨٢٠م إلىٰ سنة ١٨٢٦م ، و كانوا يفحصون القاطنين فحصاً طبياً لوقاية الزائرين ضد الأمراض التناسلية ، و كان يوجد منزل آخر في (*Rue des Marais*) .

و توجد في لندن ، في حديقة هايد بارك ، نفس العلاقات المذكورة لحديقة برلين الكبرىٰ ، و تكثر حول القشلاقات العسكرية ، و في الحي الشرقي (ايست ايند) تكثر هذه االعلاقات الشاذة ، كما توجد في الحي الغربي . و ما ذكرنا عن العواصم ينطبق علىٰ أكثرية العواصم الأخرىٰ .

بعد ملاحظة مالخصناه هنا من كتاب الضعف التناسلي ص ١٧٠ - ١٧٤ ، نعلم أنّ الأزهري الذي ذهب إلىٰ باريس سنة ١٨٢٦م ، و نفىٰ وجود الشذوذ الجنسي هناك ، كانت ملاحظته سطحية كملاحظة دكتورنا الوردي في قوله : (إنّ المجتمع الذي يشتد فيه حجاب المرأة يشتد فيه ، في نفس الوقت ، الإنحراف الجنسي ، من لواط و سحاق و ما أشبه ، و قوله : (و يبدو أنّ وعّاظنا يستسيغون الإنحراف الجنسي بين الناس ، و لا يستسيغون انتشار السفور ، و لعلنا لا نغالي إذا قلنا أنّ الإنحراف الجنسي منتشر بين الوعّاظ أكثر من انتشاره بين غيرهم [١]) .

إذا بلغ هذا الكلام أجنبياً عن بلادنا ألا يتصور أنّ السحاق بين نساء المسلمين أكثر من غيرهن ، و أنّ البغاء بالذكور أكثر انتشاراً بين رجال المسلمين ، و خاصة بين طبقة الروحانيين من جميع رجال العالم . و ذلك بشهادة أستاذ علم الإجتماع الذي قد أطّلع علىٰ الحياة الغربية و تخرّج من جامعتها ، و هو إبن الشرق !!! ألا يحق للأجنبي عنا أن يرىٰ في كلامه حجّة علينا ؟ و كذلك الأمر عند شبابنا الذين يتخرّجون عليه أو يطالعون كتابه !

---

(١) وعّاظ السلاطين ص ٨ و ٩ .

يقول الأستاذ عوني وفا الدجاني [1] : إنّ الإنسان يميل إلىٰ أفراد جـنسه لبعده من أفراد الجنس الآخر ، كما يحصل عادة بين الجنود ، و البحّارة ، و تلامذة المدارس .. الخ .

و هذا أمر طبيعي ، غير أنّه في الأوساط الدينية أنّ شدّة تمسّك المـتدين بدينه و محافظته علىٰ تقاليده تمنعانه عن إقتراف أمثال هذا الإثم ، و إذا شذّ واحد و عرف إرتكابه هذا الإثم ، عند ذاك يهان الآثم ، و ينتشر أمره ، و يستهجن فعله ، و يشنع عليه ، حتىٰ يلتجيء أحياناً إلىٰ الهجرة من مجتمعه .

و فـي غـير الأوسـاط الديـنية لا يـعبأ بـمثل ذلك ، و يـهمل أمـره و لا يذكر فلا يشتهر .

* * * *

قد أطرىٰ الدكتور الوردي و أثنىٰ علىٰ حسن تربية الطلاب في المدارس الغربية [2] ، ولكنّ البروفسور بركس [3] يقول عن فساد أخـلاق الطـلاب فـي أمريكا بعد سؤاله عن ٤٠٠ فتاة و فتىٰ عن الأمور الجنسية :

(لو قارنتم سلوك الشبان قبل ٢٥ سنة ، و تفكيرهم بما هم عـليه اليـوم ، لاطّلعتم علىٰ انحدار الإجتماعات البشرية إلىٰ الحضيض المهلك من الفساد) .

ثم يذكر نموذجاً من أجوبة الطلاب و الطالبات علىٰ أسئلته . و في بعضها ما شرحته إحدىٰ الطـالبات مـن كـيفية تـعرّض الطـلاّب المسـتهجن للـطالبات ، و ملاحقتهن في الخلوات ، و استهزاء الطلاب بالفتاة الأبيّة الممتنعة . ثم تـحدث عما جرىٰ بينهم مساءاً عندما داهمهم الظلام في إحدىٰ نزهاتهم المدرسية .

و آخر يتحدث عن مغازلات الطلاب خلال أشجار الحدائـق .. الخ . ثـم

---

(١) أستاذ علم النفس الجنائي بكلية الحقوق سابقاً ، في القسم الأول من كـتابه عـلم النـفس الجنائي ص ١٩٥ .

(٢)وعّاظ السلاطين ص ١٠ – ١١ .

(٣) أستاذ أونيورسته بشيكاغو في العدد ٧٣ من مجلة خواندنيها الإيرانية سنة ١٥ ص ٣٣ .

يقول (قبل ٢٥ سنة كانت نسبة قصص الغرام بين الشبان ٥ ٪ إلىٰ ١٠٪ ، و لكن اليوم لا حدّ لما يرتكبه الشباب بلا قيد و لا شرط ، و قد يتخذ الفتىٰ الواحد عدداً من العشيقات ، و تتخذ الفتاة عشاقاً عديدين) .

إنّ هذا الفساد الإجتماعي يزداد إنتشاراً يوماً بعد يوم ، و الأولياء لا يعيرون إهتماماً بذلك ، لأنّهم يرون (أنّ الشبان يلزمهم أن يتعلموا البيولوجيا) .

(أنّ الشبان قبل ٢٥ سنة كانوا قد تعلموا (البيولوجيا) ، و الفساد لم يكن منتشراً كانتشاره في هذا اليوم) ..الخ .

قال المؤلف في ص ٩ : (ظنّ وعّاظنا أنّهم يستطيعون أن يمنعوا الإنحراف الجنسي بواسطة الكلام و النصيحة وحدها ، غير دارين بأنّ الإنحراف طبيعة إجتماعية لا بد من ظهورها في كل بلد يحجب النساء فيه عن الرجال) .

إنّ الوعاظ لم يحاولوا (أن يمنعوا الإنحراف الجنسي بواسطة الكلام و النصيحة وحدها) ، بل إنّ الواعظ الأكبر (ص) قد سهّل في شريعته أمر الزواج ، و جوّز الطلاق فيما إذا لم يتّفق الزوجان ، و بذلك حفظ للطبيعة البشرية حقّها في التمتّع بالغريزة الجنسية ، و بالحجاب وضع حداً للمنجرفين وراء الشهوة الجنسية بلا قيد و لا شرط .

و قد يكون الإنحراف طبيعياً (في كل مكان ، يُترك الإتّصال الجنسي الطبيعي فيه) كالراهبات و الرهبان في الأديرة .

و لكنه ليس طبيعياً (في كل بلد يحجب النساء فيه عن الرجال) ، و يفسح لهم في الزواج ، إلاّ إذا كان علاج مرض الإنحراف في الرجال منحصراً بمغازلة أية إمرأة شاؤا ، و في النساء بمراودة أي رجل يهوينه ، فإنّ الحجاب يمنع عن ذلك . و إن كان العلاج منحصراً بذلك ، فإنّي أنصح هؤلاء المرضىٰ أن يذهبوا إلىٰ مستشفىٰ (كوپا) ، و يعالجوا أنفسهم باستعمال دواء (لعبة المفاتيح [1]) .

---

(١) راجع قبله ص ١٩ من هذا الكتاب .

نتيجة البحث

ليس هناك ترابط بين الحجاب و الإنحراف الجنسي ، و لا تلازم بين السفور و السلامة من الإنحراف . فإنّ الحجاب قد اشتد في السنة الخامسة من الهجرة ، و الإنحراف قد ظهر في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري . و قد استطاع الإسلام أن يكافح الشذوذ الجنسي بين تابعيه زهاء قرن و نصف قرن كما فعلت المسيحية في فجر تاريخها [١] .

و كان سبب إنتشار الإنحراف بين المجتمع الإسلامي تفكه المترفين من الطبقة الحاكمة آنذاك بهذه المتعة الجنسية ، و تقليد الشعب إيّاهم في ذلك بعد أن ضعف الوازع الديني لدىٰ الجميع .

و قد ساعدت الديارات علىٰ إنتشار هذا الشذوذ و غيره من أنواع التفسخ الخلقي . و لعل السياسة الرومانية هي التي أفسدت الديارات لإفساد المجتمع الإسلامي .

أما التغزّل بالغلمان ، فلعلّ الشاعر العربي قد تأثّر بالأدب اليوناني في ذلك . فإنّا نعلم أنّ حركة ترجمة الكتب اليونانية إلىٰ اللغة العربية كانت قوية في أوائل العصر العباسي حتىٰ عصر المأمون .

يقول الدكتور فخري في ص ١٣٥ – ١٣٦ من كتابه الضعف التناسلي :

(إنّ اللّواطة كانت ظاهرة في «ميتولوجيا» اليونان ثم انحدرت من الميتولوجيا إلىٰ تاريخ الشعب ، و تسربت إلىٰ أعمق أركان حياته السياسة أو الأدبية أو الفنية ، فمن أبدع تاريخ اللواطة في الميتولوجيا ، هو تعشّق (زيوس) لابن الملك ، الذي كان يسمىٰ (جانيميديس) ، و قصة هذا العشق تجسّمت في كثير من أدبيّات و فن اليونان الأقدمين . و تطوّرت فكرة اللّواطة عندهم ، فصاروا

---

(١) يقول الدكتور فخري في ص ١٤٠ من كتابه (الضعف التناسلي) : خفّ إنتشار اللّواطة في أوربا بتأثير المسيحية ..الخ .

يتعشّقونها تحت ضوء أشعة الحب النقي و أشعة الدين [1] ، فكان العاشق يرىٰ في الصبيّ المعشوق مخلوقاً يسلّيه ، و خلاصة القول تمتزج روحاهما قبل أن يمتزج جسداهما في اللذة التناسلية البهيمية ، مع ضرورة الحصول علىٰ اللّذة طبعاً ، و السرّ في ذلك ، هو أنّ اليونانيين كانوا ينظرون للمرأة كشخص أقلّ روحانية و أحطّ نفساً من الذكور ، و كانوا لذلك يعتقدون أنّ جمال الذكور أبدع و أدقّ تركيباً و أبدع تنسيقاً من جمال الإناث ، فللمعاشرة وجدوا الذكور أفضل من الإناث ، و للمغازلة و المجالسة و المحادثة وجدوا الذكور أفضل من الإناث ، و لبث مكتومات الصدور – و هو الشيء الذي يحتاج إليه الإنسان دائماً و في كل العصور – وجدوا الذكور أفضل من الإناث ، و أخيراً للتمتّع الجنسي ، وجدوا الجمال في الذكور أعظم منه في الإناث ، فانتشرت اللواطة بينهم ، ثم تجسمت في أغانيهم و في شعرهم و في سياستهم و في قوانينهم) .. الخ .

كان كل هذا يترجم و يقدم للخلفاء و الوزراء و الأمراء في مقابل هبات جزيلة ، و كان القوم يُكبرون اليونانيين و يبجّلون علومهم ، و كان من الطبيعي أن يتأثروا بهم ، فيرغب الأمير في هذه المتعة ، و يحاول الأديب أن يترسّم خطاهم في نثره و نظمه ، فكما أنّ العقائد المتضاربة قد إنتشرت بين المسلمين حينذاك علىٰ أثر إنتشار الكتب الأجنبية ، فانقسم المسلمون إلىٰ أشاعرة ، و معتزلة ، و مرجئة ، و قدرية ... الخ ، و حاول كل فريق أن يوفّق بين القرآن و السنّة و ما يتّبعه من رأي ، و نتج من ذلك تبلبل الأفكار ، و انتشار الزندقة ، و كفّر المسلمون بعضهم بعضاً . كذلك أجوّز أن يكون إنتشار الإنحراف الجنسي بين الطبقة الحاكمة ، من أمراء و وزراء و كتّاب و أدباء و ندمائهم ، نتيجة لانتشار تلك الكتب بينهم ، و هذا رأي أرتأيته و عليّ تبعته وحدي .

و كذلك شأننا اليوم مع الثقافة الأوربية ، فمنها جاءتنا الآراء المتضاربة من ديموقراطية و نازية و شيوعية ، و من أوربا جاءتنا المسارح و المراقص و التعرّي

---

(١) و لعلّ هذا هو مصدر شطحات بعض الصوفية و ادعياء العرفان في تغزّلهم بالغلمان .

و التبرّج ، و أخيراً التفسّخ الخلقي بأنواعه . و أخذ دعاة المدنية الغربية ، و مروجوا آرائها ، يحاولون أن يوفقوا بينها و بين القرآن و السنّة فلم يفلحوا و لم ينجحوا .

و أنّ المسلمين لم يكونوا ليحتاجوا إلىٰ النظم الإجتماعية و الآداب الأجنبية في أي يوم كان ، و يكفيهم النظام الإسلامي ، و يكفل سعادتهم ، و يكفل سعادة البشر عامة .

و إنّما المسلمون يحتاجون إلىٰ الإستفادة من إختراعات الغرب – و غير الغرب – من إختراعات و صنائع و علوم ، و كل شيء يحسّن وسائل العيش ، ما عدا النظام الإجتماعي .

يقول المؤلف : (إنّ القدماء كانوا يتصورون بأنّ الإنسان حر عاقل مختار . فهو في رأيهم يسير في الطريق الذي يختاره في ضوء المنطق و التفكير المجرد . و لهذا أكثروا من الوعظ إعتقاداً منهم بأنّهم يستطيعون بذلك علىٰ تغيير سلوك الإنسان . لقد جرىٰ مفكرونا اليوم علىٰ أسلوب أسلافهم القدماء ، لا فرق في ذلك بين من تثقف منهم ثقافة حديثة أو قديمة ، كلهم تقريباً يحاولون أن يغيّروا بالكلام طبيعة الإنسان) [١] .

و قال في ص ٣٩ من خوارق اللاشعور : (و كذلك يعاقبون الجريمة بالعقاب الشديد ، علىٰ أساس أنّ الإنسان يرتدع عن الجريمة حين يرىٰ العقوبة عليها شديدة ، ناسين أنّ الإنسان عندما يقترف الجريمة كثيراً ما يكون مسوقاً بعوامل غير واعية لا صلة لها ببراهين الفكر و المنطق) .

إنّ هذا الرأي نظير رأي الجبريّين من الأشاعرة ، الذي كان يتلخص في أنّ الإنسان غير مختار في كل ما يفعل . و الفرق بين الجبري الأشعري و الجبري العصري ، أنّ الأول كان يقول : إنّ الله تعالىٰ هو الذي يدفع الإنسان إلىٰ مصائر ليست من ذات يده . و أما الأخير فيرىٰ أنّ الغرائز البشرية هي التي تدفع الإنسان إلىٰ الإجرام .

---

(١) وعّاظ السلاطين ص ٦ – ٧.

و نحن لا ننكر بأنّ الإنسان ، عندما يقوم علىٰ عمل ، لا بد و أن تكون له دوافع من الشهوة أو الحسد أو الخوف أو غيرها . و لكنّا نقول هل يستطيع الإنسان أن يخالف هذه الدوافع برادع من (العقل) إجتناباً للعقاب ، أو بدافع (الغيرية) تقديماً لمصلحة الغير ، أو ما شئت فسمّه فيترك العمل ، أم لا ؟!.

يقول الحكيم الرومي في كتابه المثنوي ، في جواب هذه الشبهة ، ما ترجمته : (شبهة الجبري أشدّ فضيحة من شبهة القدري ، لأنّ الجبري ينكر إحساسه . إنّ قولك أفعل هذا أو أفعل ذاك ، هو دليل الإختيار يا صنم) .

و يروي لمؤمن الطاق [1] - و العهدة علىٰ الراوي - جواباً عملياً لهذه الشبهة .

يحكي عنه أنّه سمع يوماً أحد مخالفيه في الرأي من الأساتذة يحاضر تلامذته و يقول :

إنّي أعجب أشدّ العجب ممن يزعم أنّ الإنسان مختار في أفعاله ، مع أنّ الله تعالىٰ هو الخالق لكل شيء ، و فاعل كل فعل . فلم يتمالك مؤمن الطاق نفسه ، فرفع حجراً من الأرض و صكّ به جبين المحاضر . و عندما سأله القاضي ساعة المرافعة عن سبب فعله أجاب مؤمن الطاق :

لست أنا الضارب .

القاضي : فمن الذي شجّ جبين الأستاذ و أدماه ؟!.

مؤمن الطاق : إنّ الله هو الذي قد أدماه ، لأنّ كل فعل منه ، و أما أنا فلم أكن مختاراً في فعلي كما يزعم !

نعود الآن إلىٰ ميزة العقل في الإنسان ، و نذكر علىٰ ، سبيل التمثيل ، من قصة حواء تقربها إلىٰ الشجرة الممنوعة :

---

(١) مؤمن الطاق إسمه محمد بن علي بن النعمان الكوفي الصيرفي ، روىٰ عن علي بن الحسين و ابنه الباقر و جعفر الصادق (ع) ، و لقد لقبه مخالفوه شيطان الطاق . راجع الكنىٰ و الالقاب للقمي (٢ : ٣٩٨) و تكملة الفهرست لابن النديم ص ٨.

في قصة حواء ، أنّها لما تقدّمت إلىٰ الشجرة الممنوعة عنها ، رجعت الملائكة الموكلة بحراسة الشجرة إلىٰ ربها تسأله ، هل تمنع هذا المخلوق من التقرّب إلىٰ الشجرة كما تمنع سائر الحيوانات ؟ أم تتركه و شأنه ؟ فأجابها الله : إنّ لهذا المخلوق عقلاً يرشده فلا حاجة إلىٰ إستعمال القوة لمنعه .

إنّما أوردت هذه القصة مثلاً يبيّن الفرق بين الإنسان و الحيوان ، فالإنسان و الحيوان يشتركان في جميع الخصائص و الغرائز ، و يفترقان في هذه الخصلة بصورة محسوسة ، فالإنسان يشتهي الأكل و النكاح و النوم ، و الحيوان يشتهيها ، و في الإنسان غريزة الغضب ، و ما ينتج عنها من كره و حقد و شراسة ، و فيه غريزة حب النفس و ما ينتج عنها من عدم إدراك مصلحة الغير و الخوف ، و في الحيوان جميع تلك الغرائز ، أنّهما يشتركان في كل ذلك ، و يمتاز الإنسان عن فصيلة الحيوانات بالعقل و التفكير ، فإن اتّبع عقله أصاب رشده ، و إلاّ كان هو و الحيوان سواء .

و لقد اتخذت الفلاسفة و الحكماء - في توجيه البشر - من العقل سلّماً لإصلاح الفرد الإنساني و مجتمعه ، فأشادوا بالعقل ، و درّبوا البشر علىٰ التأمل و التفكير الصائب و عدم الإنسياق وراء الهوىٰ و العاطفة .

أما الأنبياء ، و نخص بالذكر نبينا محمد (ص) ، فإنّهم قد خاطبوا البشر بلغة العقل و العاطفة معاً ، و بذلك وجهوا الناس إلىٰ التفكير الصحيح ، كما نبّهوا فيه الأريحية و الغيرية ، و دفعوه إلىٰ نكران الذات في سبيل المصالح الإجتماعية .

و أما القوانين الوضعية ، فقد إعتمدت علىٰ الزجر و العقاب في ردع المجرم أكثر من أي شيء آخر ، و لم يخل مجتمع بشري من واحدة من هذه الطرق الثلاثة ، فما هو الطريق الجديد الذي جاء به أستاذ علم الإجتماع ، حيث أخذ يندد بكل هؤلاء : القدماء منهم و المتأخرين ؟!! .

و هل الجديد الذي جاء به هو رأيه بأنّ في الإنسان غرائز طبيعية يجب الإعتراف بها ، و إعطاؤها حقها في الحياة ، فهذا مالم ينكره أحد ، و لكن الكلام في أنّه هل يجب أن يوضع حد للبشر في سلوكهم ؟ أم لا ؟ بل يتركون فوضىٰ لا

نظام لهم !! و إذا كان من الواجب وضع حد لهم في الإستفادة من غرائزهم . فهل يستطيعون من الوقوف عند حدهم ؟! أم لا يستطيعون ذلك ؟ و إذا كان الإنسان قادراً علىٰ الوقوف عند حده ، فإذا تجاوز ذلك الحد هل يسأل عن تجاوزه ؟ أم لا يسأل عنه ؟

أما نحن فقد ذكرنا أنّ في الإنسان قوّتين متقابلتين : الأنانية و الغيرية ، و أنّ للإنسان قوة خارقة لتكييف نفسه . بتغليب بعض صفاته علىٰ البعض الآخر . و له عقل يميز به النافع من الضار ، فإن لم يكن الإنسان كذلك ، بل كان مجبوراً علىٰ أفعاله . غير عاقل و لا مختار ، و لا يردعه الجزاء عن إتيان المنكر -كما يُفهم ذلك من أقوالِ المؤلف - ، فلِمَ قامت المذاهب و الأديان ؟ و لماذا ظهرت النظم الإجتماعية و القوانين المدنية ؟ فليترك الناس فوضىٰ لا نظام لهم كالحيوانات - و إن كان لبعض الحيوانات أيضاً نظام متّبع - و إذا كان الناس لا بد لهم من دين سماوي أو قانون مدني ينظم حياتهم ، و يضع حداً لجموح غرائزهم ، فكيف يتم توجيههم إلىٰ الأخذ به ؟! أيمكن ذلك عن غير سبيل الدعاوة و التبشير له ؟ و باتخاذ كافة الوسائل لتركيز النظام لديهم ، و بذلك يتكون عندهم عادات و تقاليد إجتماعية ، و هي ما يسميها المؤلف بـ(العرف الإجتماعي) ، و يهتم له كل الأهتمام .

و قد دأب البشر ، منذ فجر تاريخهم ، علىٰ بث الدعوة للنظام الإجتماعي الذي يدينون به ، فهل ينكر المؤلف علىٰ جميع البشر ذلك ؟!!

و قد يفهم من مجموع كلام المؤلف أنّ القدماء ، والمتأخرين لم يعرفوا الإنسان -كما عرفه هو - ، ولم يدركوا أنّ الحسد و الشهوة و الأنانية أصيلة فيه ، و يقول :

(و لعلنا لا نخطىء إذا قلنا بأنّ الحسد و الشهوة و الأنانية و ما أشبه هي صفات أصيلة في الإنسان لا مفرّ منها) .

(فإذا قلنا للناس انبذوا الحسد و الأنانية ، فمعنىٰ ذلك أنّنا نقول لهم : أتركوا طبيعتكم البشرية) .

فما هي هذه الصفات الأصيلة في الإنسان ، و ما درجة تأثيرها فيه ؟

فالحسد : رغبة الحسود بأن يتنعّم بنعمة المحسود أو إزالة تلك النعمة عنه .

و الأنانية : رغبة الإنسان في تقديم مصلحته علىٰ مصلحة غيره لأنّه يحب نفسه أكثر من حبه الغير .

و الشهوة : الرغبة إلىٰ الأكل و الشرب ، أو النوم ، أو إشباع الغريزة الجنسية ، أو الجاه ، أو جمع المال لتحقيق رغائبه .

أجل إنّ هذه الصفات أصيلة في الإنسان ، كما يرىٰ المؤلف ، و تقابلها الصفات الغيرية الأصيلة فيه أيضاً . و لا يلام الإنسان علىٰ وجود هذه الرغبات فيه ، و إنّما قد يُلام علىٰ كيفيّة تحقيق هذه الرغائب ، و من هنا تنشأ المغالطة ، فيقول الدكتور : إنّ هذه الرغبات لا بد أنّها تدفع الإنسان إلىٰ العمل لتحقيقها ، و ذلك أمر قهري لا اختيار للإنسان فيه ، و البشر في ذلك متساوون كأسنان المشط . غير أنّ الوعّاظ لا يلومون الغني المترف علىٰ تحقيق رغائبه . و ها هنا يجيد الرثاء للفقير . سيدي الواعظ العصري ، إن كان الوعّاظ السالفون يموّهون علىٰ المترفين و يشجّعونهم علىٰ التمادي في غيهم ، كما تزعمون ، و كانوا يمدحونهم ليكسبوا بذلك ودّهم ، فيحصلوا علىٰ الجاه و المال ، فإنّكم قد ورثتم عنهم تلك النزعة حذواً النعل بالنعل ، فإنّهم إن كانوا يستشهدون بأحاديث حفظوها و لم يعوها ليكسبوا الجاه و المال من أهليه ، كما تزعمون ، فها أنّكم تستشهدون بكلمات الغربيّين (أو الشرقيّين) تطلبون بوعظكم ودّ الأكثرية من الشعب التي هي مصدر السلطات في هذا اليوم ، و نيل الجاه و المال متوقف علىٰ كسب رضاهم ، و من بعد ذينك المال ، و نحن لا نريد أن نلوم أحداً علىٰ حب الجاه و المال ، و إنّما نلومكم علىٰ سلوك الطريق .

و لنعد الآن إلىٰ الغرائز الطبيعية للإنسان فنلقي نظرة عابرة عليها .

فالحسد لايكون غالباً بين الغني و الفقير ، حتىٰ يزول إذا ساوينا بينهما .

فقد يكون منشأ الحسد وجود موهبة في المحسود قد حرم منها الحسود . و كم يصادف لأخوين أو لتلميذين ، رزق أحدهما موهبة التصوير ، بينما حرم

الآخر منها . فهل يمكننا عند ذاك أن نأخذ نصفاً من موهبة المصوّر أو المفنّ ، و نعطيها للمحروم لنزيل حسده ؟ ، و في مثل هذه الحال ، إذا اقتصر الأمر في الحسود علىٰ الرغبة بنيل الموهبة التي حرم منها ، فإنّ تلك الحالة تسمىٰ لدىٰ علماء الأخلاق بالغبطة ، و هي ليست بمذمومة ، و خاصة إذا أدت الغبطة إلىٰ التنافس بينهما ، فللتنافس قيمته العملية في الحياة الإجتماعية ، فهو الأُس السليم للتقدم البشري ، و لولاه لما رأينا مواهب تتفوق ، و أخرىٰ تنازعها هذا التفوق فينتهي إلىٰ إبداع في الفكر و العمل .

أما إذا أدّىٰ الحسد ، في التلميذ المحروم من الموهبة مثلاً ، أن يحمل في نفسه كره صاحب الموهبة ، فهذه الحالة مذمومة ، مرذولة ، لأنّها قد تؤدي إلىٰ محاولة القيام بعمل سلبي يقع ضرره علىٰ الموهوب له .

و هنا نسأل الدكتور : إذا أتلف التلميذ المحروم صور الموهوب له ، أو آذاه بنوع آخر ، هل يعتبره بريئاً ، لأنّه قام بإضرار الغير بتأثير غريزته المتأصلة فيه ، و لا حيلة له في رفعها عن نفسه ؟ أم يراه مقصراً لأنّه كان باستطاعته أن يردع نفسه من إضرار الغير !!

أمّا نحن فنقول : إنّ لكلّ مجرم ظروفاً إجتماعية و طبيعية تدفعه إلىٰ القيام بجريمته ، غير أنّه ليس بمجبر علىٰ القيام بعمله ، بل في إستطاعته أن يخالف هوىٰ نفسه متّعظاً بالشرائع ، و الأنظمة التي حدّت من حريته المطلقة ، و لذلك فهو مسئول عن جريمته .

الأنانية : هي حب الإنسان لنفسه ، و رغبته في تحقيق أمانيه (١) ، و لا يحاسب الإنسان علىٰ هذا الحب إن لم يتعد إلىٰ العمل . و أما إذا دفعه هذا الحب إلىٰ العمل لتحقيق مصلحته الخاصة دون الإضرار بمصالح الآخرين ، فهي غير مذمومة بل هي ممدوحة و لازمة للحياة ، و لكننا لا نسميها بالأنانية ، و إنّما

(١) من الخطأ أن نعتبر الأنانية خصلة مقابلة للشهوة ، و الحسد ، وإنّما هي أعم منهما و من غيرهما و هي أم الرذائل الخلقية . راجع قبله ص ١٥ و ١٦ .

هي النشاط المنتج . بل الأنانية أن يستهين الفرد بمصالح الآخرين في سبيل تحقيق مصلحته .

و أتذكّر في هذا السبيل قصّة طريفة وقعت لي في طريقي إلىٰ بغداد في يوم قاسي البرد شديده ، و كنت آنذاك مصاباً ببرد و زكام ، و كان يجالسني في عربة القطار بدوي قوي البنية سليم المزاج ، إتخذ المقعد المواجه لي متكأً له ، و كنّا نشترك في النافذة المطلّة علىٰ البر ، فإذا فتح النافذة أصابني تيار قوي مشبع بالرطوبة –و كان التيار يمر عنه و لا يصيبه – و لما لم يقتنع بوجاهة طلبي بغلق النافذة لأنّه كان يعتقد أنّه يتصرف بحقه ، و إن سبّب لي الأذىٰ ! و لم يكن لي مجال الإنتقال في القطار المزدحم بالركاب من النساء و الأطفال ، تحملت ذلك و دافعت التيار بعباءتي حتىٰ إذا وصلت مقصدي أُصبت برمد شديد ألزمني الفراش لعدة أيام .

فهذا يا سيادة الدكتور و لا شكّ من الأنانية المذمومة . و أراني لو قدّر لي أن أترافع مع البدوي إليك لحكمت له باسم الغرائز البشرية ، و بدليل أنّ حياة البداوة قد عوّدَته علىٰ استنشاق الهواء الطلق ، و لا تثريب عليه في تنفيذه لرغبته المنبعثة عن ظروفه الخاصة . و لكنّي سأقول لك : إنّ البدويّ اندفع إلىٰ إيذائي مخيّراً و لم يكن مجبراً ، و مستهيناً بمصلحتي في سبيل إشباع رغبته بدافع الأنانية المحضة ، و إذا كان دافع الشهوة و الرغبة و الأنانية عذراً مشروعاً للمجرم ، إذن فلتغلق المحاكم أبوابها !!!

أمّا الشهوة : فهي ينبوع الحياة ، و مَن لم يشته فهو مريض غير سليم ، و الإنسان الحي السليم يشتهي الأكل و الشرب ، و يشتهي النوم و العمل الجنسي ، و فيه غيرها من الشهوات . و لكن في مقدوره أن يضبط نفسه و يغالب شهوته ، فإن لم يفعل و استرسل وراء شهواته أهلك نفسه و أضرّ بالآخرين .

و الإسلام بعد أن عيّن القدر اللازم لإشباع الغرائز الإنسانية منع من الإسترسال وراء الشهوات ، كي لا يهلك الإنسان نفسه ، و يضر الآخرين ، و قد تكون الحكمة في وضع حد للإنسان ، و إدانته بالجريمة ، فيما إذا تجاوز ذلك

الحد دون الحيوان، بعد وجود العقل الفارق بينهما، إنّ الحيوان لا يستطيع أن يجنّد لتحقيق رغائبه ما عدا قواه الخاصة به، فهو يستفيد من براثنه و أنيابه و قفزه و انقضاضه للحصول علىٰ فريسته، فيكون إضراره للغير محدوداً، و إنّه ليس له طريق آخر للبقاء غير ما يقوم به، و أمّا الإنسان فإنّه يستطيع أن يجنّد أشعة الشمس، و ضياء القمر، وتيار الهواء، و جريان الماء و جميع ما يرىٰ لتحقيق شهواته و رغباته - دون أن يضر بمصلحة الآخرين - فإذا لم تُهذّب رغبات هذا البشر فإنّه سيجنّد ما في هذا العالم لتدميره، فلذلك كان واجب الأنبياء و المصلحين تهذيب طباعه، و توجيهه إلىٰ ترك الإضرار بالغير في كل ما يعمل. و من هنا ينشأ الخلاف بيننا و الدكتور، فإنّه يأخذ برأي السوفسطائيين، و يقول: (إنّ الحقيقة نسبية غير مطلقة و أنّ مقياس الحقيقة هو الإنسان بمصالحه، و رغباته، و شهواته).

و محصّل هذا الرأي: أنّ الحق مع كل إنسان في كل ما يعمل بدافع شهواته و رغباته و مصالحه، و علىٰ هذا فليس لنا أن نطالب إنساناً بأن يترك ما يرغب فيه، لأنّ الحق معه فيما يعمل و إن أضرّ بغيره، و المؤلف يدافع عن هذا الرأي فيما يكتب، و لا ينتهي نقاشنا مع الدكتور فيما يتفرع عن هذه الفلسفة عند حدّ إن لم نناقشه في أصل هذه الفلسفة و آثارها.

إنّ هذا المنطق قد يؤدي بنا إلىٰ هدم كل ما بنته الإنسانية من فضائل أخلاقية حتىٰ اليوم، فمغزاه أنّ كل شيء مباح، و ليس لقانون في العالم أن يدين أيّ مجرم كان مهما كانت جريمته، و كم من أوجه شبه بين هذا الرأي، و الحكاية الطريفة التي أوردها لك:

يحكىٰ أنّ ملكاً، من ملوك إيران الأكاسرة، مرّ في طريقه إلىٰ الصيد علىٰ قرية آمنة مطمئنة، و لما لم يؤد أهلها واجب الخضوع كما ينبغي للملك، رمق الملك وزيره و قال: (لتهدم). فأسرع الوزير إلىٰ تنفيذ أمر مولاه، و دخل القرية، و جمع رجالها البسطاء حوله فخاطبهم و قال: يا رجال القرية إنّ الملك قد أُعجب بنشاطكم البارز في تعمير هذه القرية، و رغب بمكافئة جميعكم علىٰ هذا

النشاط ، فمنح جميع رجال القرية لقب (كد خدا) أي (رئيس قرية) . قال هذا و كرّ راجعاً إلىٰ موكب الملك ، و عندما مرّ الملك علىٰ نفس القرية في السنة القادمة وجدها خرائب ، و أطلالاً ، فسأل وزيره عنها - و كان قد نسي أمره - و لمّا ذكّره الوزير بما أمر في حقهم سابقاً رقّ عليهم الملك ، و أمر بتعميرها ، فذهب الوزير إلىٰ القرية و دخلها مرة ثانية ، فلم يجد من سكانها سوىٰ الشيوخ ، و العجزة الذين أقعدتهم الشيخوخة عن الفرار ، فتوجّه إلىٰ أكثرهم جلداً ، و خاطبه سائلاً : ماذا دهاكم ؟ و ما حلّ بقريتكم ؟ فتأوه القروي و قال : هذا ما جره علينا وزير أبله مرّ علينا قبل سنة ، و أنعم علىٰ جميع رجال القرية و سام الرئاسة ، فلم يكد يخرج من القرية إلاّ و قد غلب علىٰ الجميع حب السيطرة ، فكلٌّ يريد أن ينفّذ أوامره لا زال البقية لا يخضعون له ، فسالت الدماء ، و هدّمت البيوت ، و قطعت الأشجار ، و آل أمر الباقين من سكان القرية إلىٰ الفرار .

أبدىٰ الوزير تأسّفه من ذلك ، و أعطاه مالاً جزيلاً ليصرفه علىٰ تعمير القرية ، و قال له : إنّ الملك قد عينك أميراً علىٰ هذه القرية ، و رجع عنه من حيث أتىٰ .

و ألاّ ينتهي بنا المصير إلىٰ مثل هذه القرية ، إذا قلنا للبشر جميعكم أنّكم علىٰ حق فيما تقولون و تفعلون ؟!!

السفسطة و تاريخها

لقد وجدنا الدكتور الوردي ينقل تاريخ السفسطة ، و تاريخ خصومها مشوّهاً ، و يهاجم أرسطو ، و منطقه ، و أستاذه إفلاطون ، و ينسب إليهم ما هم براء عنه ، وذلك في سبيل الدعوة إلىٰ السفسطة .

و يقول في كتابه و عّاظ السلاطين ص ١٥ : (إنّي أكاد أجزم بأنّ منطق الوعظ الإفلاطوني هو منطق المترفين و الظلمة) . و يقول في كتابه خوارق اللاّشعور ص ٨٩ : (لقد كان فلاسفة الإغريق من أصحاب العبيد ، فكانوا غير

مضطرين علىٰ التفكير في معايشتهم، أو في كيفية الحصول علىٰ رزقهم، فكان كل فيلسوف منهم يملك عدداً من العبيد يعملون له، و يكدحون في سبيل الحصول علىٰ ما يحتاج إليه، و لعلّ هذا كان من جملة العوامل التي أدت إلىٰ إنتشار منطق أرسطو بين فلاسفة الإغريق).

فلو كان العبيد يملكون من الوقت مايفكرون به كما يفكر أسيادهم، لربما رأيناهم يبتكرون منطقاً خاصاً بهم معاكساً لمنطق أسيادهم، و لنا أن نقول في هذا الصدد بأنّ منطق السفسطة كان أقرب إلىٰ فهم الحياة الواقعية من منطق أرسطو، و لعله كان منطق العمال و العبيد، و ربما كان ذلك سبب إندحاره.

لقد كره المفكرون القدماء منطق السفسطة، لأنّه ينزل بهم من أبراجهم العاجية. إنّهم يريدون أن يصعّروا خدودهم للناس، و يتباهون بما لديهم من أفكار و إصطلاحات لا يفهمها العامي و السوقي، و لذا نراهم حاربوا السفسطة محاربة لا هوادة فيها، و قد سار الفلاسفة المسلمون في القرون الوسطىٰ علىٰ نفس الوتيرة. إنّ هؤلاء الفلاسفة لم يكونوا من أصحاب العبيد، كما كان زملاؤهم الإغريق، و لكنهم أحبوا منطق أرسطو بتأثير من الجو الفكري الذي كانوا يعيشون فيه، فهم قد كانوا يكتبون في الغالب للأمراء و السلاطين، و يرجون منهم الجوائز، فأصبحوا بذلك يفكرون حسب منطق أصحاب العبيد من حيث لا يشعرون.

و يقول في ص ٨٦ منه: (و مشكلة المشاكل في منطق أرسطو أنّه لا يمثل واقع الحياة، فمن الممكن أن نسميه بمنطق البرج العاجي، و قد تتضح هذه التسمية إذا درسنا تاريخ هذا المنطق و ألممنا بظروفه الفكرية و الإجتماعية التي أحاطت بنشأته الأولىٰ)، إنتهىٰ ما أردنا نقله.

و يتلخّص رأي الدكتور: أنّ منطق أرسطو كان منطق أصحاب العبيد، و أنّ السفسطة منطق العمال و العبيد، و بما أنّ فلاسفة الإغريق كانوا من أصحاب العبيد حاربوا السفسطة بلا هوادة، و أنّ فلاسفة المسلمين لمّا كانوا يكتبون للسلاطين تابعوا فلاسفة الإغريق في ذلك، و للتدليل علىٰ صحة إستنتاجه يذكر تاريخ السفسطة، و منطق أرسطو مبتوراً، ثم يبدي أسفه في ص ٨٧ علىٰ إندحار

السفسطة ، و يقول : (و لعلّنا لا نغالي إذا قلنا بأنّ إنتصار منطق أرسطو ، و اندحار السفسطة كان من سوء حظ البشرية) .

و إنّ مثلِ الدكتور في مغالطته ، و نقله تاريخ السفسطة ، و منطق أرسطو مبتوراً و مقلوباً ، كمثل الدرويش الذي كان يترك الصلاة و يقول : إنّ الله قد ذمّ المصلين حين قال : « فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ » ، فكان يستشهد بهذه الآية ، و يترك ذكر البقية التي تنافي غرضه ، و التي هي « الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِم سَاهُون * الَّذِينَ هُم يُرَاؤن * وَ يَمْنَعونَ الْمَاعون » .(١)

و لا بد لنا ، في تمحيص هذا الإستنتاج المغلوط ، من نقل ملخّص السفسطة، و نبذة من تراجم من حاربوها من فلاسفة الإغريق ، لنرىٰ هل كان إندحار السفسطة من سوء حظ البشرية أم من حسن حظها ؟!

السفسطة و أساتذتها و طلابها و تاريخهم

بعد أن دحرت أثينا الفرس ، و حفظت لليونان إستقلالها السياسي و الفكري ، جدّ اليونانيون في توسيع الحضارة و الثقافة ، فنبغ فيهم العلماء ، و الأطباء ، و أهل الفن ، و سائر أصحاب المهن ، و قويت عندهم الديمقراطية ، و تنامىٰ التنافس بين الأفراد ، و شاع الجدل القضائي و السياسي ، و ازدادت حاجتهم إلىٰ الترافع أمام المحاكم ، و المجالس الشعبية لازدياد أسباب الخلاف بينهم ، و احتاجوا إلىٰ تعلّم الخطابة ، و أساليب المحاجّة ، فلاحظ جماعة من المثقفين أنّ المجال واسع أمامهم لاستغلال مواهبهم في الحصول علىٰ الربح المادي ، فانقلبوا إلىٰ معلمي البيان و الجدل . و هؤلاء هم السفسطائيون الذين ملأوا النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد .

تخرّج السوفسطائيون من مختلف المدارس الفلسفية ، و بذلوا كل الجهد

---

(١) الماعون : ٤ – ٧.

لتعلم المغالطة و الجدل ، و أما سائر العلوم ، فكانوا يأخذون منها علىٰ قدر ما يساعدهم علىٰ إستنباط الحجج و المغالطات ، و علىٰ التظاهر بالعلم ، و أخذوا يتاجرون بتعليم الناس الجدل و المغالطة ، و يفاخرون بتأييد القول الواحد و نقيضه علىٰ السواء !!

و تطرق عبثهم إلىٰ المبادىء الخلقية و الإجتماعية ، فهزؤا من العقل و إرشاده ، و جادلوا في الحق و الباطل ، و الخير و الشر ، و العدل و الظلم ، و أنكروا أن تكون هذه عاماً و ذاتياً ، و إنّما قالوا : أنّ الحق مع كل واحد في كل ما يشتهي و كل ما يدّعي ، و أنّ الحق يتغير بتغير الأوقات للشخص الواحد ، فيمتنع الخطأ لأيّ إنسان في أيّ وقت كان . فإذا قال إنسان اليوم شيئاً و أنكره بعد غد ، فهو صادق و مصيب في كلا اليومين ، و كلتا الحالتين ، و قد أذاعوا التشكك في الدين ، و سخروا من شعائره ، و مجّدوا القوة و الغلبة ، و ذهبوا إلىٰ أنّ كل ما في الكون وهمٌ ، أو خيال . فقد قال غورغياس [1] : لا يوجد شيء في العالم ، و إذا كان في العالم شيء ، فالإنسان قاصر عن فهمه [2] ، و إذا فرضنا أنّ إنساناً قد فهم شيئاً و أدركه ، فلن يستطيع أن يفهم غيره ، و احتجّ ببعض الأدلة الجدلية برهاناً علىٰ صحة قوله .

طلاّب السوفسطائيين و دروسهم

كان السوفسطائيون يتنقّلون بين المدن في طلب الشباب الثري ، الذي يتقاضون منه الأجور الوفيرة ، و يعلمونه الجدل و المغالطة ، و كان الشباب الثري يهرع إليهم ليتقوّىٰ بالعلم فوق ما توفر له من أسباب الغلبة ، من الجاه و المال

---

(١) كان غورغياس من كبار السوفسطائيين . ولد سنة ٤٨٠ ق.م ، و عمره أكثر من مائة، و مات سنة ٣٧٥ ق.م ، بعد أن عظم صيته ، وضخمت ثروته علىٰ حساب الإتجار بتعليم الجدل .

(٢) ينسب الوردي إلىٰ هيجل في ص ١٠٠ من خوارقه شبيه هذا الرأي .

و العصبية [1].

محاورة بين سوفسطائي و تلميذه

يقال أنّ أستاذاً سوفسطائياً إتّفق مع تلميذه الشاب الثري علىٰ أن يعلّمه من الجدل في البيان ما يمكّنه من أن يجعل الحقّ باطلاً و الباطل حقّاً ، فيعطيه التلميذ علىٰ تعلّمه مالاً جزيلاً ، و لما أتمّ الأستاذ السوفسطائي تعليمه ، و طالب بحقّه من الأجرة ، قال له التلميذ :

أحقٌّ ما تطالبه ؟

الأستاذ السوفسطائي : نعم ، إنّه يحقُّ لي الأجر لأنّي قد علّمتك ما إتّفقنا عليه !

التلميذ : لقد اتّفقنا علىٰ الأجر علىٰ أن تبلّغني من القدرة علىٰ الجدل درجة أستطيع معها أن أجعل الحق باطلاً و الباطل حقاً ، و الآن فإن كان حقاً ما تطالبه و لم أستطع من إبطال هذا الحق بالجدل ، فلا تستحق شيئاً ، و إن لم أبلغ تلك الدرجة فماذا تطالبني ؟

الأستاذ : إنّك قد استطعت الآن أن تجعل الحق باطلاً ، و لذلك فأنا أستحق الأجر !

كان السوفسطائيون يبحثون عن أثرياء الشباب ، و يعلّمونهم الجدل و المغالطة أزاء أجور كانوا يتقاضونها منهم ، و إليك نموذجاً من محاضرات السوفسطائيين علىٰ تلاميذهم من الشبان :

إنّ الطبيعة الإنسانية شهوة و هوىٰ ، و قد وضع المشرّعون القوانين لقهر

---

(١) مصدر هذا البحث ، إلىٰ هنا ، كتاب تاريخ الفلسفة ليوسف كرم ص ٤٥ إلىٰ ص ٤٧ ، و محاورة تيتياتوس لإفلاطون .

الطبيعة ، و أنّ القوانين متغيرة بتغير العرف [1] و الظروف ، فهي نسبية غير واجبة الإحترام لذاتها ، و من حق الرجل القوي ، بالعصبية أو بالمال أو بالبأس أو بالدهاء أو بالجدل ، أن يستخفّ بها أو ينسخها ، و يجري مع هوىٰ الطبيعة ، كما أنّ القانون الخلقي ، الذي تهابه الناس و تخشاه ، ليس من وضع الطبيعة ، بل الناس قد وضعته [2] ، و إنّما الطبيعة تعارضه و تأباه ، فبحسب الطبيعة ، الأمر الأخسر هو الأقبح ، و المتحمّل للظلم هو الأخسر ، وبحسب القانون الخلقي ، الذي وضعته الناس ، إنّ ارتكاب الظلم هو الأقبح ، و منشأ هذا الإختلاف بين الواقع و القانون ، أنّ القانون قد وضعه الضعفاء نظراً إلىٰ مصلحتهم الخاصة ، و هم يقصدون بذلك تخويف الأقوياء و صدّهم عن التفوّق عليهم ، و أنّ الضعفاء يرون أنّ الظلم ينشأ من إرادة القوي التسامي علىٰ الآخرين ، و لكن الطبيعة تقدم الدليل علىٰ أنّ العدالة الصحيحة بأن يتفوق الأقدر ، و ترينا أنّ هذا هو الواقع في الإنسان و الحيوان و في كل مكان، و ترينا أنّ علامة السعادة سيادة القوي علىٰ الضعيف ، و إذعان الضعيف لهذه السيادة [3] ، هذا من ناحية ، و من ناحية أخرىٰ أنّ الكل يطلب السعادة فكيف يستطيع أن يعيش سعيداً مَن يخضع لشيء ؟ أيّاً مّا كان ، إنساناً كان أو قانوناً . ألا و إنّ العدالة و الفضيلة و السعادة ، بحسب الطبيعة ، أن يتعهد الإنسان في نفسه أقوىٰ الشهوات ، ثم يستخدم ذكاءه و شجاعته لإرضائها ، مهما تبلغ من قوة ، مع تظاهره بالصلاح لإسكات العامة و الإنتفاع بحسن الصيت ، و لا يتسنىٰ هذا لغير الرجل القوي ، لذا ترىٰ أنّ العامة تعنّف الذين تعجز عن مجاراتهم ، لتخفي بهذا التعنيف ضعفها و خجلها من هذا الضعف ، و تعلن أنّ الإسراف عيب ، و هي تحاول أن تقيّد بذلك من ميزته الطبيعية من الرجال و تستعبده ، و تشيد الضعفاء بالعفة ، لقصورها عن إرضاء شهواتها الإرضاء التام ،

(١ ، ٢) لعلّ الدكتور الوردي يغرف من هذا البحر في كتابيه خوارق اللاّشعور ، و وعّاظ السلاطين ، حين يتكلم عن (الإطار الفكري) ، و (العرف الإجتماعي و قيمه) .

(٣) هذا المنطق منطق الحيوان في الغاب .

و تمجّد العدالة لجبنها و قعودها عن عظائم الأمور ، و لو صحّ ما تقوله العامة من أبناء الفقراء من أنّ السعادةفي الخلو من الحاجات و الرغائب ، لوجب أن ندعوا الأحجار و الأموات سعداء .

هذه دعاوىٰ السوفسطائيين [١] ، و هذا هو منطقهم ، فانظر إلىٰ الوردي كيف يقلب الحقائق حين يصف هذا المنطق (بمنطق العمال و العبيد) و يقول عنه : (ربما كان ذلك سبب إندحاره [٢]) .

و لست أدري هل كان الدكتور يعرف السفسطة ، و كتب ذلك مغالطاً ليخدع الأكثرية – الفقراء و العمال – و يجلبهم إليه أم كان لا يعلم ؟!!

فإن كنتَ لا تدري فتلك مصيبة ، و إن كنتَ تدري فالمصيبة أعـظم . و لا أدري أيّ قوليه أصحّ ؟ أهذا القول ؟ أم قوله من بعده ؟ (لقد كره المفكّرون القدماء منطق السفسطة ، لأنّه ينزل بهم من أبراجهم العاجية . إنّهم يريدون أن يـصعّروا خدهم للناس ، و يتباهون بما لديهم من أفكار و اصطلاحات لا يفهمها العـامي و السوقي ، و لذا نراهم حاربوا السفسطة محاربة لا هوادة فيها) .

فمن هم الذين حاربوا السـفسطة مـحاربة لا هـوادة فـيها ؟ إنّـه سـقراط و تلاميذه و مريدوه .

سقراط شهيد الفكر و الحق و العدل

إنتشرت السفسطة في بلاد اليونان ، و أفسدت أخلاق الشباب المـترف ، فنهض من بين الطبقة العاملة سقراط الحكيم ، الذي كان عاملاً نحاتاً كأبيه ، آتاه الله الحكمة و فصل الخطاب ، فبذل جهده في مكافحة السوفسطائيين ، في آرائهم

---

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم من ص ٤٥ إلىٰ ٩٤ .

(٢) خوارق اللاّشعور ص ٩٠ .

و أعمالهم ، فبينا هم يعلّمون أبناء الأثرياء بأجور و فيرة ، أخذ هذا يتجول في كل مكان ، و يبذل الحكمة بلا ثمن ، يوجّه السؤال إلىٰ الشعراء و السوفسطائيين ، و من يدّعي العلم في الأزقة و الحوانيت ، و يجعلهم سخرية لأبناء الشعب ، و يسحر الجميع بإسلوبه البسيط البليغ ، و يؤثر محادثة الشباب في مجاوراته ، ليرشدهم إلىٰ الحق و العدل و الخير ، و يهيء للبلاد مستقبلاً طيباً ، معتقداً بأنّ الله قد أقامه مؤدباً بالمجان للعموم . يرتضي الفقر ، و يرغب عن متاع الدنيا ، و كان إلىٰ ذلك مواطناً صالحاً ، و جنديّاً باسلاً ، إشترك في حربين ، و أبلىٰ فيهما بلاءً حسناً ، و أصابته القرعة فدخل مجلس الشيوخ و عرف هناك بالنزاهة . و لقد كان لسقراط مواقف مشهورة ، جهر فيها بالحق و العدل ، مستهدفاً للخطر صامداً للهياج ، و لما ضاق صدر خصومه من جرأته ، اتهموه بإنكاره لآلهة المدينة ، و إفساده الشباب ، فقابل الحكام بجرأة لم يرتضوها منه ، ولم يطلب منهم الرأفة و الرحمة ، فأُدين ، و حكم عليه بالإعدام ، و لما كان العرف يعذر الفار في تلك الحال ، هيّأ له مريدوه وسائل الفرار ، فأبىٰ أن يهرب و يخرج علىٰ القوانين التي هي سياج الدولة ، في ظلّها يحيا الفرد و يعيش ، فإن كان الاثينيون قد ظلموه ، فبأي حق يستهين هو بالقوانين و يظلمها ، و أنّه لن يفعل ذلك ، بل يوافق علىٰ تنفيذ الحكم عليه ، مهما كان قاسياً ، فهيّأ له السجّان كأس السم ، و تناولها سقراط بيديه ، و شربها حتىٰ الثمالة ، و لفظ أنفاسه هادئاً مرتاح الضمير .

ذلك هو خصم السوفسطائيين الألد ، فهل كان هذا (يصعّر خده للناس ، ويتباهىٰ بما لديه من أفكار و إصطلاحات لا يفهمها العامي و السوقي ، و لذلك حارب السفسطة محاربة لا هوادة فيها) كما زعم الدكتور ؟! إنّ المؤلف يناقض نفسه بنفسه في هذا الفصل ، و كذلك شأنه في أغلب ما كتب ! .

تلاميذ سقراط : الكلبيون و افلاطون و أرسطو

إنقسم تلاميذ سقراط من بعده إلىٰ شطرين ، قسم أراد أن يترسّم خطاه في

التهذيب العملي ، و أولئك هم الكلبيون الذين حادوا عن القصد ، فعافوا الدنيا و لذائذها ، و قسم اتّبعوه في نشر العلم و الحكمة ، و زعيم هؤلاء افلاطون ، و تلميذه أرسطو . أما افلاطون فإنّه ثابر في مكافحة السوفسطائيين ، لا بين النوادي الشعبية فحسب ، كما كان يفعل سقراط ، و إنّما علىٰ صفحات الكتب و بلسان أبطال محاوراته . و قد سيم الهوان و بيع كالعبيد ، و لكن ذلك لم يغير منه شيئاً فلم يخضع للسلطان ، ولم يقبل الجاه مدة حياته .

و من بعده قام أرسطو ، فهذّب المنطق ، وشيّد بنيانه علىٰ ما أسّسه سقراط .

هذه هي السفسطة و تاريخها ، و الدكتور الوردي يروّج هذه الفلسفة حين يقول ما مؤدّاه و ملخّصه : (لمّا كان الحق مع كلّ إنسان في تحقيقه لرغبته و شهوته و مصلحته ، فما يفعله كل إنسان حق و عدل و خير بالنسبة إلىٰ ذلك الإنسان ، و إن كان شراً و ظلماً و باطلاً بالنسبة إلىٰ غيره . إذن فالحق نسبي بتعدّد الأشخاص . و مَن يدعوك إلىٰ الحق المطلق و العدل المطلق ، إنّما يحاول أن يغشّك و يخدعك [1] !

و علىٰ ضوء هذا المنطق – منطق السفسطة – يكون الإنسان كالحيوان . فكما أنّ الذئب ليس بظالم ، و الغنم مظلوماً ، بل الحق مع الذئب في افتراسه الغنم ، و الغنم أيضاً محق في فراره عن الذئب ، لأنّ كلاّ منهما يجري وراء شهوته و مصلحته ، كذلك الأمر في الإنسان . و ذلك لإختلاف شهوات الناس ، و تعدّد مصالحهم .فالحق مع كل إنسان في كل ما يفعل . و علىٰ هذا فالحق مع الدكتور حين يرىٰ : (أنّ طلب الوعّاظ من الناس أن يتركوا الحسد و الشهوة و الأنانية نفاق [2]) !

و أما نحن فنؤمن بوجود حق مطلق ، وعدل مطلق ، يقاس عليه جميع

---

(١) راجع خوارق اللاّشعور للدكتور الوردي ص ٥٧ و ٥٨ و ٦٨ و ٧٣ و ٨٦.

(٢) راجع وعّاظ السلاطين ص ٦ ، ٨.

أعمال البشر ، فما هو ذلك الحق المطلق و الخير المحض ؟

إنّ الدكتور - تبعاً لأساتذته السوفسطائيين - يجمع بين مصلحة الإنسان و شهوته و رغبته في الذكر ، ليريك أنّ الحق مع كل إنسان في تنفيذه لرغبته و تحقيق شهوته و مصلحته ، فإن لم تقبل برأيه إتّهمك بأنّك تزعم أن ليس للإنسان الحق في السعي وراء مصلحته ، و من هنا ينشأ الخطأ ، و يبدأ بالمغالطة ، و يبني علىٰ هذا الأساس جميع أحكامه الجائرة .

الحق ما ينفع الإنسان لا ما يشتهيه

و نحن نقول أنّ الحق مع كل إنسان فيما ينفعه ، لا فيما يشتهيه ، فكثيراً مّا تصطدم مصالح الإنسان و منافعه بشهواته و رغباته ، فقد يشتهي المريض مايضرّه من المأكول و المشروب ، و لا يشتهي الدواء المر. أمن الحق عند ذاك أن نعطيه ما يشتهي و إن أضرّه ؟ و أن نترك مالا يرغب فيه و إن نفعه ؟ لا ، و إنّما الواقع و الحق أن نقدّم صلاحه و نفعه علىٰ رغبته و شهوته . و من هنا نعلم أن ليس من الحق تحقيق شهوته و رغبته دائماً ، بل من الواقع أنّ حقّ الإنسان قد يصطدم بشهوته و رغبته أحياناً ، و ليس ذلك خاصاً بالمريض ، بل الأمرفي الإنسان السالم أيضاً كذلك ، فإنّ الإنسان السالم أيضاً قد يشتهي ما يضرّه و لا ينفعه ، فكثيراً ما يشتهي الإنسان السالم أن يأكل حتىٰ يتخم ، و كثير من البشر يشتهون العمل الجنسي إلىٰ حد الإفراط المضر ، و المخالف لنفعهم و مصلحتهم ، و لا يظن أحد أنّ من الممكن إشباع الإنسان في شهواته و رغباته ، لأنّ الإنسان إذا جرىٰ وراء الشهوات يخرجه هذا حتماً عن حد الإعتدال ، و يكون مصيره عند ذاك مصير المنحدر عن الجبل بسرعة فائقة ، ظنّاً منه أنّه يستطيع الوقوف في أثناءالإنحدار متىٰ ما أراد الوقوف . كلا ، فإنّ مصيره الهوي الىٰ الحضيض ، و المنجرف وراء شهواته يهوي و يهوي إلىٰ ما لا نهاية له حتىٰ يدركه الموت .

و أنّ الإستسلام للشهوة هو بنفسه مرض مهلك للإنسان . و إذا لاحظنا

الغريزة الجنسية في الإنسان وجدنا الشخص إن لم يقف عند حد النفع فيها قد لا يكفيه من الجنس الآخر أي عدد ، مهما ارتفع العدد ، كما كـان الأمـر في بـعض السلاطين سابقاً ، و بعض المومسات دائماً ، فإذا ثبت أنّ الشـهوة و الرغـبة قـد تخالف المنفعة و المصلحة ، فلنجعل المصلحة أو بتعبير أصح منفعة الإنسان مقياساً للحقيقة ، و نقول أنّ الحق مع كل إنسان في السعي وراء منافعه .

ما ينفع من الأكل و الشرب و النوم و اللباس و العمل الجنسي ، و هكذا له الحق في السعي وراء كل ما ينفعه من الثقافة و العدالة إلىٰ غير ذلك ، و أما إذا أراد أن يأخذ أكثر مما ينفعه ، فهو خلاف ، الحق لأنّـه حينئذٍ يضرّ نفسه قبل أن يضرّ غيره ، و لا يزعم أحد أنّ منفعة إنسانٍ مّا قد تصطدم مع منافع الآخرين ، لقلّة مواد الإنتاج و موارده عن حدّ الكفاية ، أو عن الحدّ الذي ينفع البشر ، كلاّ ، لا يزعمنّ ذلك أحد ، و لنعم ما قاله فيلسوف الإنكليز الساخر برناردشو : العالم كشعر رأسي و لحيتي ، وفرة في الانتاج و سوء في التوزيع [1] . إنّ السبب فيما نرىٰ من سغب البعض هو بطر الآخرين ، و أنّ احتكار جماعات من الرأسماليّين في العالم لمواد الإنتاج أكثر ممّا ينفعهم – بدافع الشهوة الرذيلة – أضرّ الآخرين ، و لو لا ذلك لما رأينا جوعاً و لا فقراً و لا ضرّاً و لا حرباً ضروساً بين الدول . فإنّ في العالم ، من مصادر الإنتاج النافعة للإنسان و الضرورية له ، ما إن استخرج استخراجاً صحيحاً و وزّع توزيعاً عادلاً لكفىٰ جميع البشر فيما يشـتهون ، إلىٰ الحـد الذي يـنفعهم – و كلّما كثر عددهم تضاعف الإنتاج و كلّما قلّ قل – و في ملاحظة حالة أهالي بعض البلاد الإسكندينافية و سويسرا ، من البلاد التي ليست بمستعمِرة (بالكسر) و لا بمستعمَرة (بالفتح) ، و ما نجد لديهم من أمن و رفاه و سعادة أكثر من البلاد المستعمِرة و المستعمَرة ، لَخيرُ دليل علىٰ ما نقول ، فليست منفعة إنسانٍ مّا بمزاحمة منفعة غيره قطعاً ، و إنّما التي تتعارض هـي الشـهوات الضـارة و حـدها ، لأنّ الشهوات – كما ذكرنا – لا حد لها ، و إن أصررت علىٰ القول بأنّ من الممكن أن

---

(١) إنّ برناردشو كان أصلع كثّ اللحية .

ينفع إنساناً ما يضر غيره ، فنقول إنّ الضار ليس بنافع ، و ذلك لأنّ منافع المجموعة الإنسانية كتلة مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً كلياً و ثيقاً ، و هي وحدة غير قابلة للتجزئة ، كارتباط منافع الجسد الواحد بعضها مع بعض و وحدتها ، و إنّ ما يضر العين لا ينفع اليد ، و كذلك العكس . فيا أيها الإنسان لا ينفعك ما يضر أخاك ، لأنّ الشقاء و السعادة و العلم و الجهل و المرض تسري من إنسان إلىٰ آخر سريان الكهرباء في الأسلاك ، فإذا مرض إنسان يعديك ، و إن جهل يؤذيك ، و هكذا . و لن تبقىٰ في الكتلة الصلبة من الفلز برودة نصفها تحت الصفر و حرارة النصف الآخر فوق المائة . فإن لم تدرك العلاقة بين ضررك و ضرر الآخرين ، و لا يسعنا المجال ها هنا للبرهنة علىٰ هذه العلاقة القوية بينهما ، و التي هي غير قابلة الإنفكاك . و أبيت إلاّ أن تجعل منفعتك الخاصة مقياساً للحقّ فقط . فنقول أيضاً : لا ينفعك ما ضرّ أخاك ، و ذلك : أولاً : لأنّ ما تحصّله من منافع هي ثمرة جهودك و أتعابك ، و أنت تبدّد جهودك في مكافحة الآخرين ، فلا تنتفع عند ذاك إلاّ من بعض جهودك ، فافحص عن طريق آخر لجلب نفعك مما لا ضرر فيه لغيرك ، و حتماً أنت واجده إن أنعمت الفحص ، و ثانياً : إنّ الإنسان لا يستطيع الحياة الإنفرادية في الغاب ، بل هو محتاج إلىٰ الحياة الإجتماعية في المدن ، و لا يمكن الحياة الإجتماعية في المدن ما لم تترك أنت ما ينفعك لأنّه يضرّ غيرك ، و يترك غيرك ما ينفعه لأنّه يضرّك ، و ليس هذا من باب ترك النافع علىٰ حساب الغير ، و إنّما هو من باب بذل النافع في سبيل تحصيل الأنفع ، و هذا هو عمل الإنسان في جميع أعماله ، إن لم يكن مصاباً بقصر النظر ، فالزارع يبذل البذر لتحصيل الزرع الأنفع ، وهكذا .

فما يحصل للإنسان في ظلّ المدينة ، من منافع إنتاج غيره الغزير الوفير من منتوجات أهل الحرف و غيرهم ، مما لا تُعدّ و لا تُحصىٰ ، كيف يحصل عليها الإنسان إن لم يترك كل ما يضرّ غيره و إن نفعه ؟! و ليس الأمر هكذا مع الحيوان ، فإنّه يستطيع أن يعيش في الغابات و الكهوف ، و يحيا الحياة الإنفرادية ، و لا تفيده فعاليات غيره من سائر الحيوانات ، فعلىٰ الحيوان ، يصدق أنّه (يحمل معه

حقيقته الخاصّة كما يحمل أحدنا حقيبته) ، لا علىٰ الإنسان كما زعم الدكتور ذلك في ص ٥٧ من خوارقه .

النفع مقياس للفضيلة

و كما أنّ النفع مقياس للحق كذلك النفع مقياس للفضيلة ، فالناس يتفاضلون علىٰ قدر نفعهم للإنسانية ، فالأنفع منهم هو الأفضل ، و لا فضل لمن لا ينفع ، و لا خير فيما لا ينفع .

و أحطّ الناس درجة الأنانيّ ، الذي يجلب النفع لنفسه مع الإضرار بالغير ، فهو و الحيوان سواء .

و فوقه منزلة من لا يهمه إلاّ نفسه ، يجلب لها النفع علىٰ أن لا يضرّ بغيره ، و من هذه الطبقة يتشكّل أكثريّة البشر .

و أرفع منهم درجة من يهتم بجلب النفع لنفسه و لغيره ، و يأتي الغيريّ ، الذي ينكر ذاته في أعلىٰ درجات الكمال الإنساني ، و هؤلاء هم المصلحون و الأنبياء الذين يحبّون النفع العام كما يحب أحدنا نفعه الخاص .

و خارجٌ عن تعداد الإنسان ما قد يصادفنا من أشخاص يأنسون من إيذاء الغير فهؤلاء أضرّ من الحشرات المؤذية ، و أكثر شرّاً ، و يجب إعدامهم إن لم يمكن إصلاحهم .

و أخيراً فإنّ النفع ميزانُ حق ، نزن به كافة الأشياء بلا إستثناء ، فإذا سئلنا : أيّ كتاب أحسن ؟ و أيّ نظام أفضل ؟ أيّ المتخاصمين أحق ؟ علي (ع) أم معاوية ؟ يكون الجواب أبداً و دائماً : الأنفع هو الأحسن ، و الأنفع هو الأفضل ، و الأنفع هو الأحقّ ، « وَ أَمّا مٰا يَنْفَعُ النّٰاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ »[١] .

---

(١) الرعد : ١٧ .

أرسطو و منطقه

دفعاً لمغالطات السوفسطائيين في الإحتجاج ، وضع سقراط أساس المنطق و أتمّه أرسطو ، و قد اكتشفاه من أساليب محاورات الإنسان في كل مكان و كل زمان ، كما اكتشف الخليل بن أحمد أوزان الشعر من نظم الشعراء ، و من بعد ذلك أخذ الأدباء يزنون الاشعار بالبحور التي وضعها الخليل بن أحمد ، كلّما إحتاجوا البرهنة علىٰ سلامة نَظْم أو فساده . فإن صحّ القول بأنّ الشعراء أخذوا الاوزان من الخليل يصحّ ما قاله الدكتور في ص ٨٥ من خوارقه : (و قد تغلغل هذا المنطق في أعماق عقولنا بحيث أمسينا متأثرين به لا شعورياً . فكثير منّا لم يدرس قواعد المنطق في حياته ، و لكنه مع ذلك يجري في تفكيره علىٰ نفس النمط الذي يقتضيه منطق أرسطو طاليس . و هذا ناتج من تأثير الجو الفكري العام علىٰ أذهاننا ، فنحن منذ طفولتنا نسمع الكبار يتجادلون و يكتبون و يخطبون علىٰ وتيرة معيّنة ، فتنطبع هذه الوتيرة في عقولنا الباطنة ، و نبقىٰ متأثّرين بها طول حياتنا من حيث نشعر و من حيث لانشعر) ..الخ .

و نحن نقول : و كثير من الشعراء لم يدرسوا العروض ، و لكنّهم جروا في أشعارهم وفقاً للبحور التي وضعها الخليل ، غير أنّ هؤلاء الشعراء فعلوا ذلك من قبل أن يولد الخليل ، فما رأيك فيهم ؟

إنّ الاستنتاج الفكري وفق القياس المنطقي فطري عند البشر أينما كانوا ، و متىٰ ما أرادو البرهنة علىٰ صحة رأي أو فساده . فإذا فقد صديق لك نقوده ، و أخذ يفحص عنها ، و أنت تعلم موضعها ، فقد تقول له : ألم تضع نقودك في الحافظة ، ثم وضعت الحافظة في الصندوق ، إذن فإنّ نقودك في الصندوق . و إنّ الإنسان خاضع في جميع أعماله لهذا الإستنتاج الفكري بلا إنتباه ، فإنّك عندما تطفىء نار السيجارة كلّما اقتربت من البترول يمرّ في خاطرك سلسلة من القياسات كلمح البصر ، مثل : أنّ هذه النار موقدة ، و كلّ نار موقدة ملهبة للبترول ، فهذه ملهبة للبترول ، و إنّ البترول الملهبة محرقة للإنسان ، و هكذا . و بحكم هذا

الإستنتاج المنطقي السريع تطفىء نارك ، غير أنّ الإنسان ، في الأغلب ، لا يحتاج إلىٰ ميزان فيما يفكر لنفسه ، و إنّما يحتاج الميزان عند تبادل التفكير مع الغير ، كما أنّه ، في الأكثر ، لا يحتاج إلىٰ الكيل في طعام يأخذه لنفسه ممّا يملك ، و إنّما يحتاج إلىٰ الكيل في تبادله البضائع مع الغير .

و قد غالط الدكتور قرّاءه في كتابه خوارق اللاّشعور ص ٩٤ حيث جاء بما يشابه الأقيسة المنطقية ليدحض بها أرسطو و منطقه و هي :

(الضحك من غير سبب من قلّة الأدب) .

(و فلان قد ضحك من غير سبب) .

(إنّ فلان إذن قليل الأدب) .

ثم يذكر :

(قليل الأدب مضرّ بالدين) .

(و كلّ مضرٍّ بالدين يجب محاربته) .

(و فلان إذن يجب محاربته) .

و في ص ١١٤ منه :

(إنّ (فلان [١]) نجح في هذا المشروع) .

(و لما كنت أنا أصلح من فلان) .

(فإنّي سوف أنجح فيه حتماً [٢]) .

و هو يقصد ، من ذكر هذه الجمل عن لسان أبطال روايته ، أن يفهم القراء أنّ القياسات المنطقية من هذا القبيل تافهة لا قيمة لها في إرشاد الفكر . و نحن نقول أنّ هذه الجمل ليست من القياسات المنطقية في شيء ، و أنّ الدكتور في سخريّته من أرسطو ، و استهزائه بمنطقه ، و استشهاده بهذه الأقيسة الباطلة أمام أغلبية القراء الكرام ، الذين لم يدرسوا المنطق ، شبيه كل الشبه بالدرويش الذي أراد أن يسخر

---

(١) هكذا وردت في ص ١١٤ من خوارق اللاّشعور .

(٢) و قد ذكر نظير هذا في ص ٨٠ من وعّاظ السلاطين أيضاً .

من عالم كبير أمام جمهرة من الريفيّين الأمّيّين ، حين طلب من ذلك العالم الكبير – علىٰ سبيل الامتحان – أن يكتب لهم بإصبعه : حيّة علىٰ تراب الأرض ، فكتب العالم هكذا : حيّة ، فهزّ الدرويش رأسه – علامة للإستنكار – و رسم باصبعه علىٰ الأرض شكلاً لولبياً ، ثم وجّه خطابه إلىٰ الجمهرة المتفرجين الريفيين و قال : أيّهما حيّة ، ما كتبه هذا ؟ أم ما كتبته أنا ؟ ، ثم قال : ألا ترون هذا المدّعي للعلم كيف لا يعرف شيئاً حتىٰ كتابة الحيّة ؟

أهذا من الأمانة العلميّة التي يجب أن يتّصف بها كل عالم ؟!

إنّ كل إنسان سليم الذوق يدرك بفطرته أنّ في هذه القياسات مغالطة ، كما أنّه يفهم بأنّ نتائجها باطلة أيضاً ، غير أنّه لا يستطيع أن يشخّص موضع الخطأ منها إلاّ فيما إذا درس المنطق ، و وزن كلاًّ منهما بالميزان المنطقي ، كما أنّ الإنسان يدرك بذوقه السليم الشعر المطبوع الموزون ، و يميّزه عن غيره ، و لكنّه لا يستطيع أن يصف العلل الموجودة في غير الموزون منه إن لم يدرس العروض . و كما أنّ تعلّم العروض لا يجعل المتعلم أديباً منتجاً ، و إنّما ينشئه أديباً ناقداً ، فكذلك الأمر في المتعلم للمنطق . و أما عدم خضوع الخصم للأدلّة المنطقية أحياناً فليس مرجعه قصور المنطق و قياساته ، لأنّ المنطق ليس من شأنه أن يجبر أحداً علىٰ قبول الصائب من القول ، و قد يكون الخصم ممّن « جحدوا بها و استيقنتها أنفسهم [1] » ، و نحن ، علىٰ ضوء الميزان المنطقي ، نشخّص خلل أشباه القياسات التي ذكرها المؤلف ، و نشير إلىٰ ما يناسب ذكرها ها هنا فنقول : يتكوّن القياس المنطقي من جملتين . و يشترط أولاً : أن تكون الجملتان صادقتين لتصدق النتيجة ، فلو قال أحد : هذا إنسان ، وكل إنسان لا يتفس في الليل ، تكون النتيجة : هذا لا يتنفس في الليل ، و هو كذب و خطأ ، و سبب كذبه كذب قوله : كلّ إنسان لا يتنفس في الليل .

---

(١) قد اعترض الوردي في ص ٩٥ و ٩٦ من خوارقه بما ملخّصه : أنّ كثيراً من المتناظرين يحتجون بالأقيسة المنطقية دونما تأثير في الطرف الثاني ، الذي يبقىٰ مصرّاً علىٰ رأيه .

و ثانياً : لا يعتبر بالقضية التي أهمل فيها تعيين كمية الأفراد ، و في أشباه القياسات التي ذكرها المؤلف نجد الجملة الأولىٰ : (الضحك من غير سبب من قلة الأدب) مهملة ، إذ لم يعيّن هل كلّ ضحك من غير سبب من قلة الأدب ؟ أم بعض الضحك بلا سبب من قلّة الأدب . و كذلك الأمر في قوله : (قليل الأدب يضرّ بالدين) ، فإنّه لم يعيّن أكلّ قليل الأدب مضرّ بالدين ؟ أم بعض قليل الأدب ؟ و قد صرّح العلماء بأنّ القضية المهملة ، كهذه ، لا اعتبار بها . ثم نلاحظ أنّـه قد يكذب في قوله : (الضحك من غير سبب من قلّة الأدب) ، فقد يكون الضحك بلا سبب من أثر المرض كالهستيريا ، فتكون النتيجة : فلان مريض ، و المريض يجب معالجته لا محاربته . و يكذب أيضاً في قوله : (قليل الأدب مضرّ بالدين) ، فقد يكون قليل الأدب مضراً بنفسه ، و لا تجب محاربة من يضر بنفسه . كما أنّـه يكذب في قوله : (كلّ مضرّ بالدين تجب محاربته) ، فقد يجب إرشاده ، فتكون النتيجة أنّ فلاناً يجب إرشاده .

و أهم شرط في القياس المنطقي أن تتكرّر كلمة واحدة في الجملتين ، و تربط إحدىٰ الجملتين بالأخرىٰ ، مثل تكرّر كلمة الحافظة في قولنا : (نقودك في الحافظة و الحافظة في الصندوق) ، و تسمّىٰ الكلمة المتكرّرة بالأوسط . و في قوله : (أنّ فلان قد نجح في هذا المشروع) لا إرتباط بينها و بين الجملة الآتية: (و لمّا كنت أنا أصلح من فلان) لعدم وجود الأوسط – الكلمة المتكرّرة – بينهما ، فليست من القياس المنطقي بشيء ، علىٰ أنّه لم يذكر : أن فلاناً لِمَ نجح ؟ هل نجح ؟ لصلاحه ؟ أو لصلاح أبيه ؟ أو لصلاح زمانه أو مكانه ؟ و قد يكون كاذباً في زعمه بأنّـه أصلح من فلان ، فتأتي النتيجة باطلة ، و أنّ وجوه بطلان أشباه قياسات المؤلف ليست منحصرة بما ذكرنا ، و إنّما اقتصرنا علىٰ ما يناسب المقام ، و لتفاهة رأيه هذا عند العلماء لم يتصدّ أحد لنقده ، غير أنّ الذي لم يدرس المنطق ، من القراء الكرام ، قد ينخدع بهذه السفسطة ، فيلزم و الحال هذه التنويه إلىٰ مغالطاته كي لا يلتبس الأمر علىٰ أحد .

و من هذا القبيل كانت أدلّة السوفسطائيين في القرن الخامس قبل الميلاد ،

حتىٰ إذا وضع سقراط أسس المنطق ، و أتمّ أرسطو بناءه ، لم تنطل بعد ذلك أضاليلهم علىٰ أحد ، و هذا هو الباعث للدكتور علىٰ مهاجمة منطق أرسطو ، فإنّه قد ذكر في خوارقه ص ٨٧ ما يلي : (كان هذا المنطق ، الذي صاغه أرسطو ، ضربة قاضية علىٰ الحركة السوفسطائية ، و نصراً ساحقاً للفلسفة التي تؤمن بالحقيقة المطلقة ، و بمقدرة العقل البشري علىٰ إكتشافها و النظر فيها ، فلقد انهزم السوفسطائيون أمامه هزيمة منكرة ، و تشتتت فلولهم ، و لم تقم لهم بعد ذلك قائمة) .

بهذا ينتهي القسم الأول من نقد آراء المؤلف ، و في القسم الثاني – إذا شاء الله إصداره – نناقش رأي المؤلف في (المنطق ذات الحدين) ، و (التناقض) ، فهو يرىٰ تبعاً لهيجل : بأنّ التناقض أصيل في الكون ، فكل شيء هو و ليس هو في آن واحد ، و كل فكرة تحتوي علىٰ نقيضها في صميم تكوينها ، و يجوز أن يكون الشيء حقاً و باطلاً في نفس الوقت [١] .

و علىٰ ضوء هذه الفلسفة ، و ما يتفرع منها من منطق الديالكتيك ، لا يرىٰ منافاة بين كون الإسلام حقاً في عصره الأول ، و باطلاً فيما بعده !![٢] ، و لنا حديث غير قصير في نقد هيجل أولاً ، و في المادية الديالكتيكية ثانياً ، و في بحث المؤلف عن الدين الإسلامي علىٰ ضوء هذه النظرية ثالثاً . و نبحث عن سر خلود الدين الإسلامي . و أنّه قد لوحظ في تشريعه الطبيعة البشرية ، و أنّه صالح لعلاج المجتمع البشري ما دام الانسان إنساناً . أما إذا استطاع العلماء أن يغيروا طبيعة الإنسان بعلمهم و فلسفتهم ، فالدين الإسلامي لا يصلح لمجتمعهم عند ذاك .

و أخيراً نصافح المؤلف و نهنيه علىٰ توفيقه في أكثر من نقطة واحدة من بحثه التاريخي ، و نخالفه في بعض آرائه أيضاً ، و لعلنا نوفق إلىٰ نشر نقدنا لقسم من الكتب التاريخية القديمة ، فيعرف بذلك رأينا فيما كتب هو و غيره عن تاريخ

---

(١) راجع (٩٧ – ١٠٧) من خوارق اللاّشعور ، و (١٠٩ – ١١٠) من وعّاظ السلاطين .

(٢) راجع وعّاظ السلاطين (١٠٧) ، و ما بعدها ، و (١٦٢ – ١٦٤) .

العصور الإسلامية الأولىٰ .

و معذرة إلىٰ القارىء الكريم فيما إذا وجدَنا - أحياناً - نخرج عن قواعد النقد المنهجي ، فإنّ المؤلف قد أساء كثيراً في تعبيره عن رجال خدموا الإنسانية في مجال الفكر و العلم و الإصلاح ، ونستغفر الله و نسأله التوفيق و نحمده علىٰ ما وفق .

* * *

فهرس محتويات الكتاب